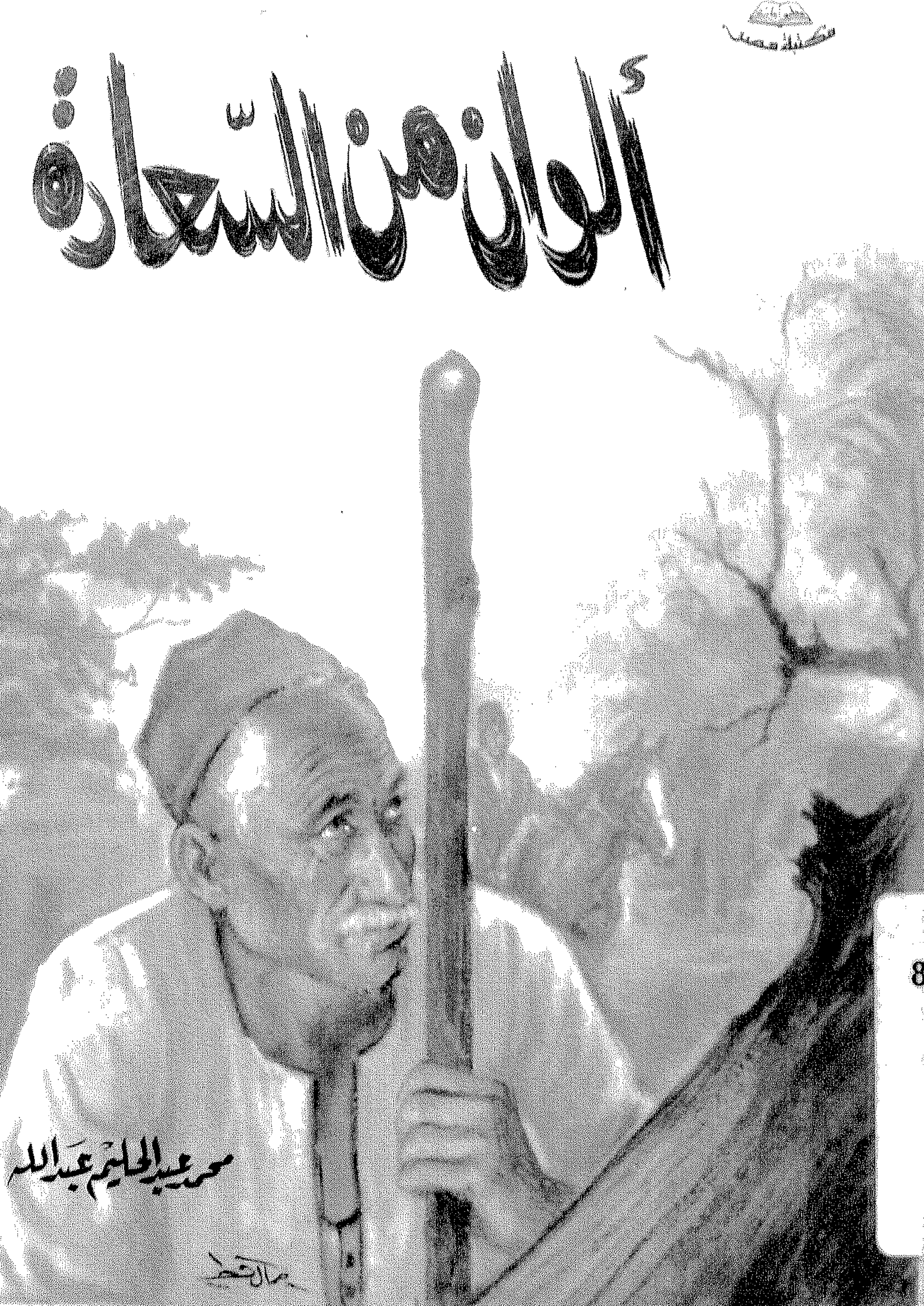


ألوان من السعادة
محمد عبد الحليم عبد الله

مطبوعات مكتبة مصر

ألوان من السعادة

تأليف

محمد عبد الحليم عبد الله

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

ألوان من السعادة

كانت حدود دنياه تنتهى عند الصفصافة الكبيرة وخط شجر « الجزورينا » الذى يفصل أرض العزبة عن التى بعدها .

وفى هذه البقعة جلس ثلاثين عاما .. إنها عمر طويل .. ثلاثون عاما .. إنه الآن فى الستين من عمره . شيخ صحيح سليم يأكل بشهيته ويفتل شاربه بقوة ويبرمه ، كما كان يفعل أبو زيد الهلالى . ويضرب الأرض بحذاء غليظ اشتراه له ابنه من أحد أسواق العاصمة . وعلى كتفه شال وبندقية . وفى يمينه عصا اسمها « نبوت » .. وظلت عيناه تنظران نحو الغرب من باب العشة المبنية من الطوب النى .. هكذا طوال ثلاثين عاما .

وعلى العشة تحنو صفصافة ذات شعور . والمصلى على مقربة منها تهبط منها إلى الماء بأحجار على هيئة سلم ، وخط « الجزورينا » يئز من نسيم العصر . وفى الليل يبدو أسود كأنه ليل آخر.

وكانت الشمس وقتئذ تهبط نحو الغرب . وعينا الرجل العجوز القوى تنظران إليها وهو يتذكر كل مافات :

ــ إننى أحب هذه الأرض كما أحب زوجتى .. وابنى محمود .. وبنتى نجية . أنا خفير هنا منذ ثلاثين عاما .. أيام الشباب كلها . وبعد أن تزوجت بجمعة واحدة جئت لأنام فى هذا المكان فى الليل .. ياه .. وكان ذلك أيام كان الحاج على هو صاحب هذه الأرض . ثم مات الحاج على وتطاحن الورثة على الأرض ثم باعوها .. لم يعودوا يأكلون من قمحها ولا يمصون العصير من قصبها بل رحلوا إلى المدينة ليأكلوا بطريقة أخرى .

ومصمص الخفير بشفتيه وهو مستند على عصاه عند باب العشة وتردد همسه :

ـ وكل منا له طريقة يأكل بها . نعم نعم .. لكننى لن أنسى اليوم الذى كانت نجية بنتى تبكى فيه على فراق بثينة .. وسألتنى بنتى بسذاجة عجيبة: « لماذا لا نشترى نحن أرض هذه العزبة ياأبى حتى نتيح لبثينة البقاء فيها طول عمرنا ؟ » ولم أجب يومذاك إلا بابتسامة لايعرف الصغار مغزاها ، لقد ظننتنى قادراعلى شراء هذه الأرض قدرتى على شراء رطل اللحم من سوق القرية الأسبوعى ..

وابتسم .. ثم أجال طرفه فى المكان . وأحس كأنه يستنشق عبيرالزرع وأنفاس الربيع لأول مرة .. ثم سأل نفسه :

ـ هل كنت أحس بسعادة أكثر من التى أحس بها الآن لو أننى مالك هذه الأرض ؟

ولم يجب فورا لأنه لم يجد الجواب . ونادى على غنام يتلكأ بغنمه على مقربة من الزرع لكى يسير فى طريقه قدما ثم مسح شاربه الذى يغطى شفته العليا وأجاب عن السؤال :

ـ سأكون سعيدا ما فى ذلك شك على شرط أن أظل قويا هكذا صلب العود هكذا لا أمرض إذا انحسر الغطاء عنى فى الليل كما يحدث لأصحابها .

ودق الأرض بنبوته ثم دقها بحذائه ثم عدل البندقية على منكبه ثم سأل نفسه سؤال آخر :

ـ ولو ملكت هذه الأرض والقوة والصحة والهيبة والكلمة المسموعة فى المركز كله .. سأكون مثل من ؟ مثل من ؟ مثل كمال أفندى كرم .. تمام تمام .. ياسلام ! .

لكنه ضحك وشهق وهو يمشى على الجسر . ينقل خطوه فى تؤده ووقار كأنه المالك جاء ليبحث عن الخفير . لأنه تذكر أن كمال أفندى كرم على الرغم من كل هذه الصفات : الغنى والصحة والهيبة والكلمة المسموعة .. يعانى غما وهما لا يحسده أحد عليهما . بل لعله يحسد الخادم الذى يمسك له لجام الحصان حتى يثب هو على ظهره لأن هذا الخادم له زوجة تنتظره إذا سكن الليل لتخفف عنه عناء النهار . أما كمال أفندى فقد هربت زوجته مع أحد أقربائه وتركت له طفلا ولهفة وحزنا .

وهتف الخفير بعد أن توقف على الطريق :

ــ لا .. لا . يفتح الله .

ثم زعق على الغنام مرة أخرى وتوعده إذا لم يمض بالغنم ، وصاغ سؤالا جديدا سأله لنفسه :

ــ ولماذا لاأكون رجلا من طراز آخر .. مال .. وصحة ، وزوجة مخلصة ؟ .. أليس فى المنطقة التى حولنا رجل تتوفر له كل هذه النعم ؟ ياه .. فيه .. محمود عبد الراضى صاحب حدائق الفاكهة المشهور. يملك كل ذلك . فلماذا لاأكون مثله ؟ لكنه تذكر فجأة أن محمود عبد الراضى لا أولاد له . وأن كثيرا من أقاربه يتربصون له بحقد مدهون بالنفاق . ومودة كنسيج العنكبوت تنقطع عند أول لمسة . لأن الوارث والموروث كل منهما يسىء الظن بالآخر.. وأن هذا الغنى الكبير يسلى همومه وقلقه وأحزانه بالسعى فى الأرض والتجارة ، والمال بعد ذلك يأتى بلا قصد لأنه لايريده . بل كلما تكدس تذكر من الذى سيأكله من بعده ..

فصاح الخفير وهو يعود أدراجه :

ــ مصيبة .. والله العظيم حكاية .. طيب .. أيهما تفضل المال أم العيال ؟ إذا كان لابد من أحدهما فقط ؟

وابتسم فى حنان . وتحسس قلبه تحت صدره الذى لا يزال ناهدا كصدور الشبان ..

ففى هذا القلب كانت ذكرى طفل ـ أصبح اليوم رجلا ـ واسمه محمود. كانت لا تزال حية فيه تنبض مع دقاته . وتذكر اليوم الذى سمع فيه من فم ابنه ولأول مرة فى حياته كلمة « بابا » .

وخرجت من خلف سنتين جديدتين طلعتا فكانتا فى بياض حبات البرد ورقتها .

وحاول الخفير أن يفرض ثمنا لهذه الكلمة عند سماعها لأول مرة فنظر إلى الأرض التى يحرسها وماعليها من بناء وبقر وشجر فوجدها لاتصلح أن تكون ثمنا لهذه الكلمة .

لكنه لم يستطع أن يجد تحليلا يقبله عقله .

فكيف تكون كل هذه الأشياء التى يتطاحن عليها الناس أقل قيمة من كلمة « بابا » !؟

وصمم على أن يسأل أحدا من طلبة الجامعة حين يأتون فى إجازة العيد بعد انقضاء رمضان لأنه عاجز عن أن يفهم .

***

ثم نظر إلى الشمس التى لاتزال تطلب طريقا نحوالغرب ، وتذكر شيئا ما لبث أن نغصه وطرد عن نفسه الراحة . إن هذه الأرض قد بيعت من جديد من أيام قلائل .. وهذا هو ثالث مالك وهولايزال خفيرا .

قال الذين وقعت عيونهم على المالك : إنه رجل فظ غليظ فى كل شىء . فى جسمه وصوته وقلبه وروحه .

لكن الخفير لم يره بعد . وماذا يحدث من أضرار لو أن المالك الجديد كان مالكا لكل هذه الصفات المرذولة !

الذى سيحدث أنه سيستغنى عن خدماته لأنه رجل مسن .

وهمس الخفير :

ـ لوكان ابنى محمود فلاحا لحل مكانى ، لكنه التحق بالبوليس بعد خدمة الجيش . لعل هذا أحسن له ، ولجية فى حضن زوجها . وأنا وزوجتى يكفينا القليل .

لكننى سأشعر بالحسرة إذا نحانى عن هذا العمل . أنا الذى ربيت كل شىء على هذه الرقعة الفسيحة من الأرض . كلهم يقولون لى ياعم . وبعضهم يقول لى يا جدى . وسطر الجزورينا هذا زرعته بيدى صغيرا مثل أعواد الذرة . وشجرة الجميز المظلمة عند حدود العزبة . والمصلى والصفصاف . والخيل والبقر.. كل هذا مسحت عليه بكفى ، لذلك أنا أحب هذه الأرض ولو أبعدنى عنها فإننى سأموت .

وأحس بلهفة كبيرة عجب من حرارتها .. سأل نفسه بعدها عن مقدار اللهفة التى شعر بها من ملكوها ثم باعوها ورحلوا عنها . إنه هوشخصيا يحس أنه يحبها أكثر منهم .. فهمس :

ـ كم مليون رغيف أخذت من هذه الأرض ؟ وإذا كان التبن والفول والبرسيم يتحول فى الضروع إلى لبن فإن عضلاتى ـ إذن ـ من خير هذه الأرض .

وأخذ يتحسس ساعديه وصدره وكتفيه . كان يربت على نفسه بحنان كأنه يدلل طفلا يخاف عليه أن يبكى أو أن يستيقظ من النوم . وشعربحب شديد للأماكن التى تقع عليها عينه يشبه فى لهجته وظمئه حبه للأنثى . فكتم شهقة وهوينظر على امتداد الطريق لأنه رأى فرسا تتبختر فى طريقها إليه وعليها راكب وخلفه رجل . فعدل البندقية على منكبه وسار فى اتجاهه ليلقى المالك الجديد .

***



ولأمر ما ، نزل الراكب من على فرسه ووقف يفحص بعض الحدود .

كان بدينا فى كل شىء ، قصيرا وفى بطنه انتفاخ وتحت عينيه انتفاخ وتحت ذقنه جلدة تشبه شقة الستارة .

وكان يبدو ـ حقيقة ـ غليظ الصوت والقلب والإحساس مهيبا رهيبا إلى أبعد حد .

ولقيه الخفير باحترام وإجلال ووقف ينظر إلى عينيه القلقتين فى ذعر وقلق ، وخيل إليه أنه على أبواب امتحان وأن عثرة واحدة أمام هذا الرجل الذى يبدو النزق على تصرفاته كفيلة بأن تطيح به .

قال المالك بعد أن وصل إلى نهاية الحدود ووقف عند خط « الجزورينا » وألقى نظرة على « العشة » والصفصافة والمصلى :

ـ أنت رجل عجوز أيها الخفير .. لاشك أنك تنام ملء جفونك فى هذه العشة .. أليس لك ولد شاب يعمل بدلك فى هذه الأرض ؟ .

فأجاب الخفير باطمئنان :

ـ أنا عجوز حقا ياسيدى .. لكن ابنى يحرس أماكن أخرى .

ـ أين هى ؟

ـ شوارع الإسكندرية .. إنه عسكرى بوليس .

ثم سار الرجلان وراء المالك ، والحصان فى يد أحدهما . وأيقن الخفير أن نهايته فى هذه البقاع قد حانت وأنه لن يراها إلا من بعيد ، سيقيم فى القرية بعد الاستغناء عنه وستبدو له هذه الأشجار عند خط الأفق وستصبح آخرحدود الدنيا.. ياه . !

إن قلبه ينبض بعنف .. إن نبضات قلبه اليوم فقط تدل على أنه عجوز كأنما الشيخوخة أدركته من المخاوف بعد أن سمع كلام هذا الرجل .

ولما انتهى المطاف كان المالك قد نسى شيئا . نسى أنه لايستطيع أن

يثب إلى الحصان إلابمعاونة أحد . وكان الرجل الذى معه ضعيفا هزيلا ؛ عندئذ وقع بصره على الخفير ودلت نظرته على أنه يطلب المعونة ، فأخذه بين ساعديه بحنان وحرص حتى استقر راكبا على ظهر الفرس . ومن فوق صهوته ألقى على الخفير نظرة ليس فيها شكر ولكن فيها إقرار بصلاحيته للعمل .

وقال الخفير بعدها وهو جالس فى المصلى ينظر إلى الأفق :

ـ إننى أملك شيئا لايملكه صاحب الأرض .. ألم أرفعه إلى صهوة الجواد وهوعاجز عن أن يرفع نفسه ؟

ثم قبل يديه اللتين فعلتا ذلك ظهرا لبطن .

ومرت الأيام ..

المالك يأتى إلى العزبة ثم يغيب عنها .. واطمأن الخفير العجوز إلى إقامته .. وعلم أن الحياة لن تسلبه هذا الحب . ثم أدرك بعد أن سأل أحد طلبة الجامعة عن سر سعادته بكلمة « بابا » إن الله يعطى الفقراء ألوانا من السعادة أعظم ما فيها أن الأغنياء يعجزون عن شرائها بالمال . كأن الله قد صنعها للفقراء خاصة بهم فحسب .

ثم اكتمل إيمان الخفيربعناصر سعادته ، حين علم فجأة أن الابن الذكر الوحيد بين خمس بنات لمالك هذه العزبة قد مات مصدورا ، وأن غناه لم يستطع أن يشفيه ، وأن الأب القصير الغليظ المنتفخ العينين والبطن والعنق يمشى شاردا كأنه نصف مجنون . وأن أزواج البنات بدأوا ينظرون إلى العزبة من فوق أكتاف زوجاتهم . وأن التطاحن سيبدأ عما قريب بعد أن يرحل المالك . وأنه أدرك ما سيحدث مقدما ، فأوصى بنصيب ابنه المصدور من الميراث ليكون وقفا على معالجة المصدورين ، فكأنه عاش وتمتع بشبابه .

لكن كمده لم يخف وحسرته لم تنقص .

وكان الخفير قريبا من المصلى عندما وصلته هذه الأنباء ، فخلع البندقية وصلى العصر ، ثم خرج ووقف على الطريق ونظر إلى الأرض وذكر تاريخها والذين باعوها ، والذين باعتهم والذين رغبوا فيها ولم تمنحهم الوصال .. والذين أحبوها لأنها وطنهم وفيها ذكرياتهم فقط .. كموقفه منها..

فضرب صدره السليم بقبضة يده . وتصور سواعده القوية بكفيه . وفتل شاربى « أبو زيد الهلالى » وتنهد وتنفس الصعداء بارتياح وهتف كأنه يكلم أحدا :

ـ نعمة .. الحمد لله .

وكان سطر « الجزورينا » الذى زرعته كفه منذ أكثر من ثلاثين عام ، يئز من نسيم العصر .

منتصر دائما

إذا كان ثوبك وحيدا فلا ينبغى أن يكون قذرا .
إن نظافة الثوب الوحيد من أنبل جهاد الفقراء .
فإذا كتب عليك أن تكون فقيرا فحاول أن تكون
شريفا .

تبدو الحديقة الوحيدة فى هذه المنطقة من المدينة غريبة الخضرة جميلة النظافة أشبه ماتكون بالرقعة الزاهية فى الثوب الخلق القديم .

وطبيعة الأرض التى غرست عليها أكسبتها كثيرا من البهجة . كانت فى الأصل غير مستوية ، فلما غطتها يد الحكومة بالغرين وغرست أشجارها تاركة أمر ارتفاعها وانخفاضها على ناحية ـ أصبح قبحها جمالا وأصبح عيبها مزية .

لكنها على الرغم من كل شىء كانت كالرقعة الزاهية فى الثوب الخلق القديم ..

كل المبانى التى تنظر إليها مسنة هرمة كابية دكناء . وعلى مقربة منها قسم البوليس وموقف العربات وسوق غير رسمية ، والميدان حولها ـ على العموم ـ يشير إلى المستوى المنخفض الذى يعيش فيه الحى .

ولم يكن زهرها من النوع المعطر الجذاب . كان لونا فحسب ، أبيض وأصفر وأحمر . لأن المقصد الأول من غرس الحديقة هوتغطية التراب بالخضرة وإتاحة الفرصة للأطفال والأمهات والشيوخ والمتعبين أن يجدوا على القرب منهم مكانا خالص الهواء فسيحا يجرى فيه الصغار وتستريح الأمهات ويتراخى الشيوخ والمرضى والمتعبون .

ولم تكن هذه الحديقة بعيدة عن بيتنا . كانت على مسيرة عشر دقائق يفضى إليها طريقان : أحدهما شارع ، والآخرحارة تصب فى الميدان على مقربة من السور . وقد واظبت على الذهاب إليها أنا وأحد أصدقائى من الصبيان .

كنا فى ذلك الوقت فى حوالى التاسعة من عمرنا تختلف مشاعرنا وهواياتنا فى اللعب . لكن العلاقة بينى وبين صديقى الذى أعنيه الآن كانت حب السباحة .

ولم يثننا تهديد أمهاتنا وقسوة آبائنا عن الذهاب إلى النيل . وكان (شافعى) أمهرنا فى السباحة وأكثرنا جرأة قلب . يحرضنا على النزول إلى الماء بنهم كما تحرض الأوزة صغارها بالسأسأة .

وكنت أذهب ، أنا وهو ـ وحيدين أو معنا ثالث ـ إلى الحديقة القريبة وأرقب مهارته فى اللعب وابتداع المشاغبة بانبهار من ينظر إلى قمة الهرم للمرة الأولى .

وكنت أفيض عليه نظير ذلك من الخيرات النسبية التى أحملها فى جيبى لأنه كان شديد الفقر : أبوه أحد عساكر البوليس كثير العيال له زوجة تلد باستمراربأسباب ومن غير سبب !!.. من أجل ذلك فإن جلباب (شافعى) كان لايخلو من الفتوق وقلما يرى متكامل الأزرار . وكان يسألنى عما معى بمهارة فائقة : يحتضننى وفى عينيه الواسعتين انكسارة غزل ثم يتحسس صدرى حتى تلمس أنامله جيبى فيهتف كمن وقع فى أمر بلاقصد :

ـ (ألله !! .. إيه ده ياواد ؟!) ..

وعندما ترتخى شفته السفلى من الابتسام أرى اللعاب يبرق على أسنانه البيضاء وفى رونق فأقدم له مما معى فى صمت وحب ومودة .

لكن شافعى ماكان يقود أتباعه إلى الحديقة إلا إذا مل من السباحة وكانت آثار الضرب بادية على أردافه وذراعيه باستمرار ، وكنا نرى فى بعض الأحيان بقعة بنفسجية تحت عينيه من أثرلكمة فى البيت أو وقعة فى الحارة .

كانت نياشين الشقاوة لاتنزل عنه إلا قليلا وكان يشير إليها باعتزاز

صبيانى وحركة خفيفة أذكرها الآن وأنا أب لأولاد فأبتسم للرذيلة فى أطرف ثيابها .

وفى ظهر يوم قائظ ذهب شافعى إلى النيل ليستحم فلم يرجع . كان الفيضان فى إبانه والماء فى النهر الكبيريطرد حالكا كأنه مجرى من القهوة. وأصر شافعى على الاستحمام فبلعته دوامة . وظل الصغار محملقين غير مصدقين أنه يغرق . ظنوه يمازحهم أو يسخرمنهم فقد كانوا يعتقدون أنه أقوى من النهر . فلما استوى الماء من فوقه واستأنف جريانه كأنه لم يبتلع فلذة كبد ، جمع الصبيان ملابسهم وتفرقوا مذعورين . وتواصوا من غير قصد ألا يقولوا شيئا . حتى إذا ما رن نواح أمه فى حوش البيت جزعا من عدم عودة (المفقود) تسرب السر من بين الأضلاع الصغيرة وأذاعه الصبيان . ولم أعد أرى شافعى منذ ذلك اليوم ! ..

وكان لابد لى أن أجد صديقا ..

قلبى منذ الصغر لايتحمل الفراغ ولايمكن أن يكون منزلا خاليا من السكن ! ..

وابتدأت الخيرات النسبية التى أحملها فى جيبى خصوصا من الحلوى التى يحضرها أبى من الأفراح بعد عقد عقود الزواج ـ ابتدأت تتسرب إلى فتحى .. صديقى الجديد .

على أنه لم يكن بديع الحيلة ظريف التطلع كما كان صديقى القديم . وكنت كثيرا ما أعطيه كرها لأنه كان يقصد إلى هدفه بلا حياء . يقصد إلى جيبى المفعم أو الخالى . أما شافعى فقد كان يحلق كثيرا قبل أن يهبط .

وكثرترددنا علي الحديقة بعد حادث غرق صديقى . وانحط مستوى مرحنا جملة حتى كأن الأيام فقد حماستها أو الليالى أضاعت بهجتها . أو كأن شافعى كان النغمة الحية فى اللحن الكسول .

أما فتحى فكان طليقا سائبا .

غلام يفعل ما يشاء بعد ما يعود من الورشة ، أى ورشة شئت .. حدادة أونجارة أو مصنع أحذية . كان كثير الهروب قليل الطاعة فزاول مختلف المهن . يتيما ترعاه أمه الخادمة فى أحد المستشفيات . لكنه ظل مصدر متاعب لأمه فى الأرض ولأبيه فى السماء حتى بلغ سن الشباب وحمل أعباءه الثقيلة .

وقبل أن يهبط المساء ؛ فى يوم ما . كنت أنا وهو فى الحديقة . كان الوقت صيفا مرة أخرى . وغلالة من غبار أشبه بالضباب الساخن تقف متحيرة فوق البيوت والشوارع المرشوشة على بقايا النفايات . ومن شدة الحر كنت تتخيل كأن الأشجار تتنفس بعسر .

كان فى جيبى يومئذ أخلاط شتى من الأشياء : حلوى من التى يجلبها أبى من الأفراح ، وسودانى اشتريته بتعريفة ولب بطيخ حمصته أمى بعد الغداء .

واضطجعت أنا وفتحى على الحشائش فلم تلبث يده أن قصدت إلى جيبى بلا رفق ولا تلطف . وكنت يومئذ رقيق القلب جدا كأننى شعرت أن فتحى يريد طعاما .

كان يثرثر بما لقيه فى يومه ويباهى بحيله التى لاتنقضى إذا ماقسا عليه أحد الأسطوات . وآخر ماصنعه أنه تصنع الإغماء حين لكمه أحدهم فى صدره . فقامت الدنيا وقعدت ورشوا على وجهه ماء من أقرب إناء .. كان مع الأسف الصفيحة التى تنقع فيها الجلود ؟ (وها . ها. ها) وضحكنا ضحكة صبيانية تنبع من صميم القلب وتجلجل فى الهواء .

وكف فتحى عن الضحك فجأة كأنه أقفل بصمام . ونظر يحملق . ولما نظرت حيث ثبتت نظراته لم أر ما يستدعى هذا الاهتمام . وسألته عن الخبر

فقال لى :

ـ ألا ترى ؟ .. هذه عربة أطفال . هل فى كلامى مايثير السخرية ؟ إن منظر العربات يخطف عقلى يا مغفل .. ألم يحدث لك مرة أن ركبت عربة أطفال ؟ .. كلامى يضحك لكنى ركبتها وأنا صغير . لم يكن أبى غنيا لكنه كان عند أحد الأغنياء فمنحه عربة قديمة .. فى عمر هذه التى تراها . لا .. ربما كانت يومئذ فى حالة أحسن . وكان أبى هو الذى يدفعها بى وأنا راكب.

وغلبنى الضحك فضحك معى . كنت أعلم أنه جامح الخيال كذاب من الذين يقولون ما لايفعلون . لكنى تصورته راكبا عربة أطفال بوجهه العكر وخلقته غيرالمتناسقة . وأخيرا استطرد :

ـ الأشياء تبدو جميلة جدا إذا نظر إليها الطفل من فوق حاجز عربته .. واندفعت فى الضحك بشكل جنونى حتى اغرورقت عيناى وعيناه بالدموع . أنا من الضحك وهو من الغيظ . وسادنا صمت جلجلت خلاله صيحات بائع العرقسوس فى الميدان خارج السور بجانب موقف العربات .

واستأنف فتحى كلامه كأنه أراد أن يتكلم فى شىء أميل إلى نطاق العقل :

ـ طيب اسمع .. ألم تركب الجمل مرة من المرات .. ؟ تقول : لا ؟ .. حسن .. ركبته أنا والله العظيم .. سافرت مع أبى إلى القرية ذات يوم فأركبنى جمل أحد أقربائنا هناك ..آه .. الأشياء تبدو منخفضة جدا إذا نظر الطفل من فوق الجمل ؟ .. كلامى لايعجبك .. (اتنيل) إنك لم تركب شيئا طول عمرك ..

وعلا صراخ طفلة صغيرة على مقربة منا بشكل أثار فزع الناس . واندفعنا مع المندفعين نستطلع الخبر . فتبين أن قطعة من الزجاج دخلت فى قدمها الطرية فأغرقتها فى الدم . وبدت عربة الأطفال فى هذه الوهلة وحيدة

فريدة كأنها شاة بلاراع لأنها كانت عربة الطفلة . وبرقت عينا فتحى بعد أن عدنا ووقفنا بجانب العربة وسمعته يهمس بصوت من يخاف أن تفوته فرصة أو ينشد مساعدا شهما :

ـ ياخسارة ؟.. لو كان شافعى موجودا .. لكنه غرق !

ثم دفع العربة فجأة إلى الأمام وأمرنى أن أتبعه . وخرجنا بها من باب جانبى ولم يطل بنا مشينا فى الشارع حتى وصلنا إلى فتحة الحارة . ومن هناك دخلنا فى الأمان . وهبط المساء ونحن نلعب بها مع عدد من الصبيان من كل سن . وادعيت أنا أن أبى اشتراها حديثا لأختى (سميرة) . ومضت ساعة من الزمن .. فتبخرت اللذة وترسبت المسئولية . من منا نحن الاثنين يؤوى فى بيته هذه المصيبة العزيزة ؟.

وتركها فتحى وهرب . وأحسست بدلالى على أبوى لأنى فضلة الموت. ليس معهم إلا طفلة بنت أربع سنوات والطفلة الصغيرة (سميرة) بنت العام الواحد .

فأخذت العربة ودخلت بها على أمى . رأيتها شيئا يشبه بغلة التنظيم قد أحالها الإهمال والعمل إلى كائن يثير الشفقة ، فدقت صدرها وأنذرتنى بعدة شرور. شر أبى وشر الأرض وشر السماء .

ولم يكن هناك مايمكن عمله بسرعة لأن أبى غائب لمدة يومين ولن تقدر على معالجة الأمر . وجثمت العربة فى إحدى زوايا الغرفة حتى عاد أبى متأخرا ذات ليلة .. دخل وعليه قفطان تشيب يدخره للأسفار يدثر بطنه فى ترف . وعقدة الحزام الحريرى إلى الأمام على الكرش الذى حوى أطايب الولائم . وقبلنى ثم خلع ثيابه وشكا الجوع وجلسنا إلى العشاء . ولأمر ما وقع بصره على العربة فصرخ حتى كأن الحساء الساخر أريق عليه . وقمت بلا أكل ودخلت حجرة أخرى . وأحسست أن اهتمامه بى قد انقلب إلى عداوة

وكان يشرب كثيرا على الطعام ويقرقع بالقلة ويتجشأ ويستعيذ بالله منى ويتنبأ لى بمستقبل مظلم . وأخيرا .. آن للوم أن ينقلب إلى تدبر خطة . ماذا يعمل الرجل ليتخلص من هذه البلية ؟.

قرر أن يأخذها ويسلمها للبوليس . لكن أمى زحزحته عن ذلك لخوفها على . ثم قرر أن يخرجهاويتركها فى مكان ماكأنها طفلة بلا والد . ولكنه عدل عن هذا العمل بعد وهلة . وكان آخر ما قاله وهو يتثاءب للنعاس أن موعدهم الصبح وإن الصبح جد قريب .

وضحك كثيرا حين رأى منظرها فى النهار ..

ــ (ها . ها . ها .) إنها أشبه بالنساء تبدو عيوبهم واضحة إذا انطفأت مصابيح الليل .. لعنة الله على هؤلاء العيال .. ماذا غركم فيها ؟ ليتها كانت جديدة فألتمس لكم عذرا ؟ . ودفعها بقدمه ثم لبس وخرج . وشغل بمايشغل به الآباء فى العادة . وفى المساء رآها لاتزال قابعة فى الركن فقال :

ــ آه .. نسيت اليوم .. ألا تذكرينني غدا وأنا خارج لأرحل هذه المصيبة من البيت ؟ ..

وانقضت عدة ليال على هذا الوضع وألقت العربة فى ركن الغرفة كما تؤلف كل زيادة كريهة . وعاتبت أمى أبى فى إحدى الليالى على إهماله فتنبه ثم قال بأسف :

ــ كده .. لعل الأوان قد فات . كان يجب أن نعمل هذا من وقت باكر.

وهز رأسه وسكت . ومنذ هذه الكلمة اكتسبنا حقا مشروعا فى استعمال هذه العربة فأضجعنا فيها الطفلة (سميرة) ونزهناها فى حوش البيت . وخيل إلى بعد عدة شهور أن أبى قد اشتراها لها وأنها تنظر من فوق حاجزها فترى الأشياء رائعة كما قال فتحى ذات يوم ..

لكن المسئولية تجددت فجأة وبدون انتظار. وندم أبواى وندمت أنا معهما على أننا لم نتخلص منها أو نسلمها للبوليس منذ اللحظة الأولى .

لقد ماتت سميرة بالخناق وهى راقدة وصرخ الأبوان بوجوب إخراج هذه العربة من البيت . لكن مشاغل الحزن والعمل عادت فألهت المرأة والرجل عن أن ينفذا ماعزما عليه ، فبقيت العربة فى الركن ..

ثم سقطت إحدى عجلاتها بفعل الزمن فصار الحمام القطاوى الذى تربيه أمى فى الشقة يأوى إليها كأنها عش وكساها بقعا بيضاء من العسير إجلاؤها كأنها صبغة ، وأخيرا ... عبثت بها الفئران وكانت نهاية مطافها بعد أن وقف تكاثر الحمام فيها وتقطعت ذريته أن رحلتها أمى إلى السطوح، ثم باعتها بعد مدة بقروش عدة بعد أن أجلت عنها ثلاث قطط حديثة الولادة كانت تموء بمايشبه الدموع كأنها أخرجت من وطنها ؟.

تسألنى لماذا حكيت لك هذه الحكاية ؟ الناس يتكلمون دائما بما يذكرونه جيدا ، وتسكت ألسنتهم تماما عما يمحى من ذاكرتهم تماما .

ومعظم الأشخاص الذين تحركوا معى على مسرح هذه الحوادث الصغيرة قد غابوا : غرق شافعى . وارتحل فتحى إلى مكان لايعلمه أهله . وماتت أمى ، وبقى أبى يقطع مابقى من الطريق بخطوات الشيخوخة الوانية. لكن حادث العربة كان يشب إلى ذهنه كلما رأى طفلا يسرق شيئا : وظل يعلق عليه بعبارة حفظتها من طول تكراره لها :

ـ إذا كان ثوبك وحيدا فلا ينبغى أن يكون قذرا . إن نظافة الثوب من أنبل جهاد الفقراء . فإذا كتب عليك أن تكون فقيرا فحاول أن تكون شريفا !»

ولذلك فإنى لا أخون ..

أنا دائما محتاج إلى مال ، أنا ذو عيال وأمانى وفقر وطموح .

والجنيهات تحت يدى كثيرة لأنى (صراف) .. تهزنى بأعنف مما تهزنا الغرائز..

ومع ذلك .. فأنا انتصر دائما .

حبيبى الأول

كانوا يتحدثون عن الوفاء فى سهرة الليلة ..

بمناسبة حادث فى القرية وقع فى غضون هذا الأسبوع .. رجل فقير مات فى اليوم التالى حزنا على امرأته الجميلة التى كان يحسد عليها حتى من الأغنياء .

وكان الليل صيفا والشبابيك مفتوحة . ورائحة الماء والنبات تملأ الجو ويعبق بها هواء المكان . و « الكلوب » يئز والضفادع تنق . وطلب زوج عمتى ـ وهو صاحب الدار ـ دورا آخر من الشاى واعترض بعض الحاضرين فى غير انتباه ثم انصرف إلى الكلام .

ورجعوا ثانيا يتحدثون عن الوفاء فاعتدلت عمتى على الكنبة ومدت يدها فتناولت صحيفة الصباح وجعلت منها مروحة ثم نظرت إلى قبل أن تتجه إلى الحاضرين وقالت فى ابتسام وطيبة :

ـ أتريدون أن تسمعوا عن الوفاء حكاية جديدة ؟

ـ غريبة ؟..

ـ أنا لا أحب الغريب من الحكايات .. إنها قد تثير الفضول ولكنها لاتصور الناس . أما هذه فعلى العكس ، فاسمعوا :

ـ أنتم تعلمون مقدار محبتى للأطفال ، خصوصا وأننى محرومة منهم ، ولعل حديثى هذا داخل فى مملكة الوفاء أيضا لأن زوجى لم يشأ أن يضم شريكة إلى على الرغم من أننى لم أنجب له طول حياتى ..

(وعبرت هذه الوهلة على وجهها الطيب سحابة سريعة ثم اختفت وواصلت حديثها) :

ــ منذ عشرين سنة .. آه .. عشرين سنة تماما . كان عندنا ضيف فى فصل الصيف سنه فى ذلك الوقت عشرسنوات . كان غلاما ندى العود حلو الوجه أحمر شهى التقاطيع كنت أنظر إليه وأتمنى على الله أن يهبنى مثله .

كان طويل السكوت ، كثيرالتأمل ، فى طبعه أشياء تخالف طبع الصبيان فى سنه .. فهو يصيد العصافير ولايعذبها ويجلس على الشاطىء ويرمى الحصا فى الماء كأنه يؤلف لحنا ، ويرحل وحده فى البرارى ليعود بباقة من الأزهار فيقدمها إلى . وكنت أجد لذلك طعما لذيذا فأمسح على شعره وأقبله كما يفعل العشاق .

وبعد أسبوع من إقامته عندنا انصرف عنى تماما .

لم يعد يقوم إلى الأزهار . ولايجلس معى فى المطبخ فيحكى حكاية أو ينشد مقطوعة من الشعر . إذا أشرقت الشمس لبس « صندله » أو خرج حافيا ليعود قبل الغداء فى هيئة الرجل الذى أنهكه العمل . أشعة الشمس قد لفحت وجهه وحبات العرق تبرق عند منابت شعره . وفى عينيه السوداوين من يريد أن يأكل لينصرف إلى شغله العاجل .

ولما كنت وحيدة أطلب الأنس شعرت بشىء يشبه القلق أوالفضول فوصيت أحد المزارعين فى أرضنا أن يتعقب لى خطا الضيف لأعرف أين يقضى سحابة يومه ؟ ولم يلبث الرجل أن رجع لى بالخبر .

***

وفى صباح اليوم التالى رأيته بعد الفطور يتسلل خارجا من البيت فاعترضت سبيله وسألته باهتمام :

ــ إلى أين يا بنى ؟ لماذا لا تخبرنى بالمكان الذى تنوى الذهاب إليه ؟.. هيه .. ألاتعلم أنك ضيفى وأننى مسئولة عنك أمام والديك ؟

فأجابنى ببداهة لا تشك فى صدقها :

ـ أنا ذاهب إلى النخل . لأجمع البلح الذى يسقط فى الليل قبل أن يسبقنى إليه أحد الصبيان .

فاعترضت قائلة :

ـ وهل تقضى النهار كله فى جمع البلح من تحت النخل ؟

ـ لا .. إننى ألعب مع الأولاد بقية الوقت .

ـ آه .. تلعب مع الأولاد .. مع من يابنى العزيز ؟

ـ مع محمود بن بكر ، وسالم بن رضوان وعطية بن مبروك ، وأولاد آخرين .

ـ وهل ستعود سريعا ؟

ـ سأعود .. سريعا .

وانطلق كما ينطلق العصفور من القفص . وكنت أعلم أنه يكذب فهو لم يلعب مع هؤلاء الذين عدد لى أسماءهم منذ أسبوع على الأقل ومن أجل ذلك هم ينقمون عليه .

***

وعاد فى وقت مبكر نوعا ودخل وفى عينيه انتباه من يتوقع أن أحدا يتربص له . فسألته عقب دخوله :

ـ هيه .. مع الأولاد أنفسهم كنت تلعب هذا اليوم ؟

فهمس وعيناه تنظران نحوالخلاء :

ـ كنت ألعب ..

وفر من الإجابة كأنما لم يرتض الكذب فى هذا اليوم ، وكنت واقفة فى المطبخ أرقب عصيرالطماطم وهو ينضج على النارفلم أستطع أن أحول بصرى إلى الضيف . لكننى سألته :

ـ هيه .. ولماذا كففت عن إحضار الأزهار إلى كما كنت تفعل من

قبل ؟

ــ لقد آذانى الشوك . انظرى .

وعرض على ساقيه فرأيت فيهما خدوشا . وإحدى كفيه فوجدت فيهما كدمة فقلت وأنا أكتم ابتسامة :

ــ وهل كنت تحتمل كل هذا فى سبيلى ؟ هل تحبنى إلى هذا الحد ؟

فأجاب بحياء :

ــ نعم ..

ــ إذن فأنت لم تعد تحبنى مادمت اليوم غيرقادر على تحمل الشوك فى سبيل سرورى .

وقهقهت كأنما أعجبنى منطقى . وخيل إلى أن هذا الغزل الطريف يرمى فى غيرمكانه . فارتبك الضيف الصغير وانصرف ينظر إلى الحقول . ولكننى ظللت مضيقة الخناق عليه فقلت له :

ــ لماذا تكتم الأمر عنى وأنت تقدم الأزهار لواحدة أخرى ؟

ولم أسمع جوابه لأننى وقتئذ صببت جزءا من المرق على السمن المقدوح فارتفع صوت كصوت الماء والنار حين يلتقيان . ولما ذهبت الضبابة التى غامت فى جو المطبخ رأيت وجهه الأسمر وقد لونته حمرة الخجل .

(وسكتت عمتى قليلا لأن الخادمة كانت دخلت بصينية الشاى .وتنهد الجالسون ونقلت عمتى جريدة الصباح من يد إلى يد ثم استأنفت الترويح والقصة) :

ــ وقد يلذ للكبار أن يعبثوا بالصغار كم يلذ للأطفال أن يعبثوا بالعصافير . فقلت له :

ــ هل رأيت أنك تكذب على ؟ ألاتعلم أننى عرفت أين تقضى يومك ولمن تقدم هداياك من البلح والأزهار ؟

فلم يجبنى بكلمة . فقلت وكأننى أتشفى والضحك يقطع نبراتى :

ـ كيف استطاعت « عواطف » الملعونة أن تصنع فيك كل هذا ؟ تجمع لها الأزهار والبلح كل يوم وتقطع إلى عزبتهم اثنين كيلو ماشيا على الترعة.. وتضيع الوقت هناك وترجع لى مجهدا من التعب ، ثم تخفى عنى كل ذلك ؟

وعدت أقهقه ..

فبلغ به الخجل إلى درجة أنه بكى فتركت ما فى يدى ثم انحنيت عليه أقبله وأمسح عن خده الدموع . ولما هدأ قلت له :

ـ لاتحزن .. إنى أضحك معك .. سأرسل إلى « عواطف » لتأتى إلينا ولتلعبا معا فى العزبة ، ولأدخل على نفسك السرور .

***

ومنذ ذلك اليوم لم يغب الضيف عن عينى كثيرا .

كانت الصبية في مثل سنه ، بنت عشرسنوات وكانت أكثر منه مرحا ، كنت أراها من النافذة وهى تقوده بين النخيل وتعلمه كيف يتسلقها . وفى مرة من المرات دخلت فى قدمه شوكة كبيرة فجلسا على الأرض وتولت « عواطف » تضميد الجراح للضيف . وكان منظرا عذبا حين مسحت الدم الذى لوث أصابعها فى ذيل قميصها من تحت ثم انسربت إلى حقل القطن لتعود ببضع لوزات حلجتها ووضعتها على قدمه وأخرجت من جيبها منديلا ربطتها به ، ثم جرت نحو زير عند مدخل النخل غرس فى الأرض تحت الظل ليشرب منه العابرون ـ فملأت للضيف كوزا من الماء وسعت به إليه . وبعد أن شرب بسط كفيه ليغسلهما فانحنت تصب عليهما الماء ..

كان كل شيء فى حركاتهما يدل على أنهما حبيبان .وكنت أرقب حالهما من النافذة وأعجب من الحياة التى تعلمنا قانونها بنفسها . وأتصور اليوم الذى يفترق فيه هذان الصبيان وماذا عسى أن يفعل البعد فى القلبين



الطريين .

ومكث الضيف عندنا شهرا حضر أبوه فى نهايته ليقيم يوما واحدا يرحل بعده مستصحبا ابنه . وظللت طول اليوم الأخير أترقب الحبيبين من النافذة ولكن عينى لم تقع لهما على أثر فقد فضلا أن يلعبا هناك بعيدا .. حتى رأيتهما آخر النهار يمشيان جنبا إلى جنب على الطريق الموازى للترعة بحركة أقل خفة أقرب إلى حركات الكبار يلونهما كثير من الجد وتحمل المسئولية والضجر من الغد المجهول ، وكان فى يد الصبية مروحة من الغاب على شكل مثمن جدلاها وحليا كل زاوية من زواياها بزهرة برية . ورأيتها تعطيه المروحة وهو يفارقها . وينحدر من أعلى الطريق فى اتجاهه إلى العزبة ويمر بالنخل وهى واقفة على المرتفع تنظر إليه ثم مشت يداعب نسيم العصارى ثوبها النظيف .

وسافر الضيف الكبير ومعه الضيف الصغير ، لم ينس الأخيرأن يضع فى متاعه الخصوصى المروحة المجدولة من الغاب . فهل كان يقصد أن يحملها على أنها تذكار ؟..

وتتابعت الفصول ..

جاء الخريف وأعقبه الشتاء . ثم الربيع ..

وكنت أذكر ضيفنا صغيرا كلما رأيت الصبية « عواطف » وأسترجع المشاهد الفطرية العاطفية البريئة التى سجلاها فى الصيف الماضى .

وفى منتصف الصيف الثانى تلقيت رسالة تحمل نبأ حضور الضيف الصغير فأخذنى عليه إشفاق ولهفة .

(سأل بعض الحاضرين عمتى عن السبب ؟ فقالت ضاحكة : هناك أشياء كثيرة ستعرفونها فى آخر الحكاية ، ثم عادت تتكلم) :

ـ وحضر الضيف . وكان الوقت ليلا فتعشى ونام . واستيقظت أنا فى

الصباح قبل نهوضه فرأيته يمسح النوم عن عينيه وينهض كمن سيدرك قطارا قبل أن يفوت . عندئذ قمت فقدمت إليه فطوره فأكل بسرعة وهم بالخروج . سألته :

- إلى أين ياحبيبى ؟

قال بحركة آلية ولهجة من يوضح أمرا واضحا جدا :

- أجمع البلح من تحت النخل قبل أن يسبقنى الصبيان .

- وبعد ذلك ؟

- ألعب .

- مع من ؟

- مع من ؟ .. مع محمود بن بكر ، وسالم بن رضوان و ..

فسكت فجأة حتى رأى دمعة قهرت شجاعتى ، وسألنى عن السبب فقلت له :

- ألاتريد أن تلعب مع عواطف ؟

فأطرق ينظر فى أظافره ولم يرد ، فاستطردت أنا :

- لقد غرقت فى الربيع الماضى . تعال انظر . ترى هذه الترعة ؟ فى هذه البقعة عند الساقية القديمة سقطت فى الماء . كانت تحاول خلع بعض أعواد الغاب فزلت قدمها .. ولم يدركها الفلاحون يابنى .. هل أنت حزين من أجلها ؟

فسألنى فى خشوع :

- ألم ترى شبحها فى الليل يسير بين النخيل ؟ .. يقولون إن شبح القتلى تظهر أشباحهم فى الظلام .

فسألت نفسى : وهل هذا حنين ؟ هل يريد الصبى أن يراها ولو على هيئة شبح ؟ هل تتغلب قوة الحنين فينا على قوة الخوف ؟

لكنى لم أرد عليه . ولم يلبث أن تسلل وحيدا ونزل إلى الحقول .

وبقى الضيف عندنا خمسة عشريوما . كنت أراه يجدل خلالها مروحة بعد مروحة من الغاب على هيئة مثمن ويحلى زواياها بالأزهار ثم يمشى على الشاطىء حتى إذا ماوقف عند الساقية القديمة عبث بالمروحة مرات وبطريقة تدل على القلق كأنه ذكر « عواطف » وفجأة يتقدم إلى الماء ويقذف بها إليه ويراقب التيار وهو يجرى بها إلى المجهول ..

على أن إقامته لم تطل فقد كان يقول لى كل يوم :

ــ إن الدنيا عندكم حر .

***

قال الحاضرون :

ــ هذا غريب .. إن حب الصغار أكبر من حب الكبار.

وسأل أحدهم :

ــ ترى عندما يصير هذا الغلام رجلا هل تتغير طباعه ؟

فأجابت عمتى وهى تضحك :

ــ إن المهر يتحول إلى حصان حتما ، ولن يكون ثورا أبدا ، إنكم جميعا تعرفون رقة قلبه وسرعة انسكاب دموعه وتعجبون الآن برباط عنقه الأحمر والزهرة التى وضعها فى عروة السترة .

فضحك الحاضرون وهم ينظرون إلى قائلين ومن بينهم زوجتى :

ــ « هو أنت ؟ .. أيها المحبوب القديم .. عرفناك » .

أم الأبطال

ابتسامة السخرية لاتزال مطبوعة على ثغر
أبى الهول منذ سمع جعجعة مدافع بونابرت ،
ثم رأها ترتد حاملة عار الهزيمة...

كل شيء حوله كان لايزيد على أنه حلم ..

المرئيات مهزوزة كأنها عجينة طرية تلتقى أطرافها وتتشابك ، ثم تنفصل وتتصل بلا نظام ولا قاعدة كحبات القمح فى الغربال ، وتصاب الأشياء فجأة بالجمود ثم تتمطى لتبدأ الحركة . وتخضع للنظام برهة لتعود إلى هياجها غير المرتب .

وكان يجاهد بكل مايستطيع ليعرف أهو فى نوم أم يقظة .

وحرك أوصاله ليقوم من تحت هذا الكابوس . إنه لا يحس بألم لكنه يشعر أنه غير طبيعى . وعلى الرغم من تحركه فإن وضعا من الأوضاع لم يتغير أمام عينيه .

هو إذن غير نائم ..

وعندئذ وضع كفه على جبينه ليتذكر . فأحس أن شيئا يقف بين كفه وبين جبينه .. وجعل يتحسسه بوعى غير كامل حتى استغرق فى النوم .

وكان فى هذه المرة نائما نوما حقيقيا لأنه لم يشعر بشىء ، وبعد فترة تنبه فإذا بكفه لاتزال فى موضعها الأول فوق قطعة الشاش التى عصب بها رأسه .

وشهق (فوزى) كأنما سقط فى الماء :

ـ آه .. أنا فى مستشفى ما فى ذلك شك . وفى جو المكان رائحة عقاقير. الرائحة التى كانت تهيج شيئا ما فى أعماقى حينما كنت أدخل مستشفى لأزور مريضا .. تمام ..

ثم عاوده النوم . ومن النوم نوع يشبه البرزخ يتوسط بين الغيبوبة

والشعور ويسجل الإحساس فيه شيئا من هنا وشيئا من هناك .. جزءا من عالم اليقظة وجزءا من عالم الأحلام .

وكان واقعا تحت سلطان هذا النوع فى هذه اللحظة ، فتخايل أمام فكره جو غامض فيه دخان ورائحة تزكم الأنف ، وأصوات تتفجر، ومكبر صوت يدعو الناس إلى جهة معينة . وناس يمشون فى السماء وعلى الأرض والمشى غير منتظم : على الأقدام وعلى الأيدى والأرجل وزحفا وعلى الجنب. وطفلة تبكى جنب حائط متهدم وغطاء حلة من نحاس يطير فى اتجاه أفقى فيصيب وجها أحمريخر صاحبه متضرجا بالدم . وزجاج يملأ الشارع . وأصوات : « لا تخف .. هات يدك .. انهض .. اضرب .. اضرب .. » .

ثم تغيب أصوات فى الأفق ويسود السكون حتى أحس كأنه انغمس فيه . وتأتى همسات من أفواه لاتريد أن تزعج أحدا وخطوات تدوس على شىء لين . ثم يفتح عينيه فيشعر أنه حقيقة غير نائم . فالمرئيات منفصل بعضها عن بعض تقوم بينها حدود ومسافات ، وجه صبيح لامرأة قصيرة وكتفين عريضتين لرجل عليه معطف أبيض ، ورائحة عقاقير، وشعاع يدخل من إحدى النوافذ ، وناس يرقدون .

ـ تذكرت . أنا هنا ؟

وأحس بأوجاع فرضت نفسها عليه ، لم يكن قادرا على أن ينكرها ، وكانت فى أماكن مختلفة من جسمه لكنه أخذ يحسب ويهمس فى سره :

ـ أكثر من عشرين سنة وأنا فى كفالتها ، منذ عهد رضاعى إلى زهرة شبابى لم تسىء إلى يوما . ظللتنى طول عمرى بجناحها الناعم . حبنا للأشياء تلده أسباب معقولة وكل مالقيته منها جعلنى أحبها .. أمى .

ورفع صوته بالكلمة الأخيرة فتناهى إلى أذن ممرضة كانت فى طريقها إليه ، واهتزت فى قلبها أوتار الحنان هزات أعنف من المطلوب ، فترقرقت

فى عينيها الدموع وهى منحنية عليه وعلى شفتيها ابتسامة عزيزة .

قالت له :

ـ إن ابنى يحبنى كما تحب أمك .. هل تحس بتعب ما ؟

وتحسست رأسه فأضاء وجهه المتعب بظل ابتسامة وقال لها :

ـ كنت أفكر فى أمى الكبيرة .. فى أمنا جميعا .. فى مصر .

ـ فهمت . ومن هذا الذى لايفكر فيها فى هذه الأيام ؟

ثم بدا على وجهها أنها تريد أن تقول شيئا لكنها عدلت عنه وولته ظهرها إلى حيث جعلت تدور فى عنابر المستشفى .

وظلل المدينة المكافحة (بور سعيد) ليل شديد البرد والظلام ولو أننا لانزال فى شهر(نوفمبر) . والبحرفى الشمال يهدركأنه يتوعد . وقوة الدفاع مرابطة فى إصرار ، ذكر الغزاء ـ من غيرشك ـ بابتسامة السخرية المطبوعة على ثغر أبى الهول منذ سمع جعجعة مدافع (بونابرت) ثم رآها ترتد حاملة عار الهزيمة .

وفى الفترات التى كان إطلاق النار يتوقف فيها لسبب ما ، يهبط السكون عميقا متحفزا . ولم يكن فى العنبر رجل يتأوه . كل جريح كان متعجلا الوقت الذى يخرج فيه من جديد ليلقى العدو ، وفى فترة من فترات هذا السكون عادت الممرضة نفسها وألقت نظرة على وجه (فوزى) وكان متيقظا فى هذه المرة :

ـ هل تحس ألما ما ؟

ـ بالطبع . .

ـ من الجرح الذى فى ذراعك أم الجرح الذى فى رأسك ؟

فبدت على شفتيه ـ تحت النورالخافت ـ ابتسامة مرة . وقال :

ـ من الجرح الذى حال بينى وبين أن أقاتل . أيهما إذن ؟ هل تعرفينه؟

وغابت البسمة ليحل محلها عزم صامت ، فى الوقت الذى اتخذت فيه الممرضة مكانا من حافة الفراش وتهيأت لأن تتكلم :

ـ كان لى ولدان فى مثل عمرك يحبانى جدا كما تحب أمك .. هل أنت فى الثانية والعشرين يابنى ؟..

ثم تلفتت واقتربت منه ليكون صوتها الخافت أشد وضوحا لأن ريقها جف فلم يتحرك لسانها بسهولة .

ـ توأمان .. وهبهما لى الله مرة واحدة ، يشبه أحدهما الآخر إلى حد كبير. وكان تشابههما يغيظنى أحيانا حين كنت أطلب من أحدهما فى ذهول مايجب أن أطلبه من الآخر . وكان يسلينى أحيانا حين كنت أرى وجه الغائب منهما فى وجه أخيه الحاضر أمامى ..

ـ وأين هما الآن ياسيدتى ؟

ـ سأقص عليك . لاتتعجل : فى سنة ١٩٤٥ حين كانت أعمال الفدائيين نشطة هنا ضد الإنجليزخرج أحدهما ولم يعد ، رأوه فى الضوء وهو يتسلل راجعا زاحفا على بطنه ، فى ضوء الانفجار الشديد الذى حدث فى مخزن الذخيرة بفعل ولدى .

ثم أطرقت الأم وسكتت لحظة لاتتكلم ..وجاء تعليق مفاجىء من رجل فى السرير القريب يقول فى صوت أجش :

ـ ها .. مرحبا مرحبا .. أنت إذن أم هذا البطل ! إننى أعرفه .

وثار الفضول بين الجرحى فجعلوا يسمعون . وأدركت الأم أنه أصبح لزاما عليها أن ترفع صوتها :

ـ منذ ذلك الوقت استطعت أن أوهم نفسى أن ابنى غيرغائب . فى الخارج وسيعود ، أو مسافر وسيرسل خطابا . وأرى ملامحه فى ملامح أخيه .وكنت أفرض أحيانا ـ لأرتاح ـ أن الغائب هوالحاضر ، وأن الحاضر هو

الغائب .

وجاء صوت من سرير أبعد :

ــ حكاية طريفة .

وجاء صوت آخر يقول :

ــ إن الأيام ستكشف عن بطولات أعظم ، أكملى ياسيدتى .

ــ ومنذ ثلاثة أيام رأينا جميعا ماحدث فى مدينتنا . كانت نوبتى فى هذا المستشفى لم يحن ميعادها بعد ، حين دخلت المعركة إلى شوارع المدينة .

كنت فى النافذة إلى جوار ولدى الثانى أحشو له البندقية ليواصل إطلاق النار . وطلب منى أن أسقيه لأنه يحس الظمأ منذ وقت طويل ، فهرعت إلى الداخل أبحث له عن (قلة) ولما عدت وجدته راقدا يتلوى على مقربة من النافذة .. وذهب دون أن يشرب ..

وقامت الأم إلى الخارج ولعل ذلك لتستر دموعها عن الرجال وكان وقع خطواتها سريعا غير واضح . ولم ينبس أحد الراقدين بكلمة ما ، وسمع فى البهو الخارجى صوت يوقع بالصفير لحنا حماسيا .

ثم تكلم (فوزى) فقال لجاره :

ــ هذه امرأة ..لكنها وهبت أكثر مما يهب الرجال .

ــ تمام . فينا من وهب أصبعا ، وفينا من وهب قدما وفينا من جرح فحسب . لكنها هى .. أعطت كثيرا ..

ــ لك حق ..

ــ أظن أننى سأخرج فى يوم قريب . أحسست بعد سماع قصة هذه الأم أن جروحى شفيت قبل أوانها . وسأقدم لها تذكارا .

ــ وأنا سألحق بك بإذن الله ..

***

ونام فوزى فى هذه الليلة لايشعر بألم ، وفى صباح اليوم التالى شعر أن قدرا من الصحة غير عادى جرى فى أوصاله ، ومضى يوما دون أن يرى هذه الأم . وفى الوقت الذى كان يتأهب فيه للخروج من المستشفى ظهرت هى من جديد ، ولقيها بلهفة وسألها فى ابتسام :

ـ قولى ماتعتقدين . هل تشعرين بحزن لأنك فقدت ولدين؟

فوقفت تقلب كفيها فى ارتباك وتعجب وكأنها استنكرت سؤاله . وبعد وهلة أجابت وعلى وجهها شبه غضب :

ـ لماذا أحزن .. هل اغتصب منى أحد شيئا ؟..

وحاولت مرة أخرى أن تفسر رأيها فعجزت . فأدرك فوزى أنها تريد أن تقول : إن الذين يعملون لايندمون . والنادمون هم الذين يؤخذ منهم .. وكلنا نعطى مصرالتى أعطتنا .

وهز رأسه وهو يقول لها :

ـ كفى .. كفى .. فهمت . أنا خارج غدا ومحتفظ بتذكار . هل تقبلينه ؟

وخلع الساعة من معصمه وقدمها إليهالأنه لم يكن فى معصمها ساعة . وقال لها وهو يبتسم :

ـ وأنا مستعد أن أقبل منك أى تذكار أيتها الأم حتى لا ترفضى تذكارى .

ـ إذن .. غدا .

وبعد أن أصبح الجريح قادراعلى استئناف حياته العادية صحب الأم إلى مكان ما بالمدينة حيث قدمت له تذكارا .

كان بندقية ابنها الثانى . قدمتها إليه وهى تقول له :

ـ خذها . كان فى مثل سنك ، ومثل لونك ، ومثل قوامك . ولعل فى

نظراتك شبه من نظراته . خذ بندقيته .. واحتفظ بها لأنه من المحتمل أن تحتاج إليها فى وقت ما .

ـ حاضر ياأم الأبطال .

التجربة الأولى

تمنيت ألا يكون لى أبوان فى القاهرة آنذاك .

كان كثير من التلاميذ الذين نزحوا إلى العاصمة يتعلمون يتمنون عكس ماكنت أتمنى . لكنى فى تلك الفترة من العمر رأيت السعادة كل السعادة ماثلة فى الحياة التى كان يعيشها صديقى (حسين) .

كان يسكن وحده فى غرفة علوية ضائعة فى فضاء السطوح . دورة مياهها بعيدة عنها . مستقلة . واقعة هناك بعيدا عن المدخل حيث بنى صاحب البيت بابا يقفل على الجميع . لكن يد الزمان عبثت بكل شىء فيه فكان يتراقص طوال الليل بفعل الهـواء والقطط أو الفيران فى بعض الأحيان .

وكنت أسأل صديقى عما إذا كانت المخاوف تنتابه حين ينام فى هذا المعزل فى ليالى الشتاء ؟ فيجيب بضحكة طيبة خالية من الزهوبأنه لايعرف الخوف . لقد نام وحده طول حياته .. طول حياته .. نعم طول حياته ، لم ينعم بحنان الأم طويلا ثم ولت .. ماتت .. وتزوج الأب الذى لايزال صغيرالسن فى دور الشباب ، ونام الزوجان اللذان لم ينجبا بعد ذلك وتركاه ينام وحده طول الحياة .

ويقهقه (حسين) كأنه يحكى حكاية لاتمس شخصه ويقوم فيشعل الوابور ليصنع القهوة ، أويسلق المكرونة بطريقة تثير الشهية والحسد والرغبة حتى تمنيت لو كنت مثله ، أسكن حجرة مستقلة هكذا فآكل ما أطبخ وأغسل ما ألبس وأذاكر مع من أشاء وألتقى فى معزلى فى الطبقة الخامسة من هذا البيت الواقع على جبل الكبش كل من أحب أن ألقاه .. ولايهمنى بعد ذلك

أن أستسلم لمخاوف الوحدة .

وإن بيتنا كخلية النحل . فى حجرة الجلوس بعد أن يعود أبى من عمله يساهرأشكالا من الزملاء والزوار والقرويين الذين يفدون على منزلنا يبيتون ليلة أو ليلتين لقضاء بعض المصالح فى المدينة .

وفى حجرة نوم أبى تستقبل أمى ضيوفها .. جاراتها فى البيت الحاضر وجاراتها فى البيت الذى عزلنا منه . وفى الحجرة الثالثة التى يجلس فيها إخوتى الصغار يحتشد أبناء الضيف فيتسلون مع إخوتى أو يتشاجرون، وفى الحجرة الرابعة حيث أذاكر أنا وأخى تأتى إلينا الأصوات من كل فج إذا جلسنا للعمل . وكثيرا ما نستدعى لتقديم الشاى أوالقهوة أو شراء سجاير بعد ما تنام الخادمة الصغيرة فى المطبخ فلا تستيقظ حتى لو صببنا على رأسها الماء .

لذلك كنت ألجأ إلى صديقى حسين ، إلى الحجرةالعالية الهادئة التى ترتبها يد الزميل المهتدم . وأحسده على ملكه الصغير . ونذاكر ونتسامر وقد يمسى علينا الليل فأنام عنده ، وخصوصا فى الليالى القريبة من الامتحان لأن بيتنا بعيد جدا عن جبل الكبش .

ومثل كل الطلاب أو مثل كل الشباب ، كنا نتحدث عن الحب . كان صديقى (حسين) شابا غير عاطفى بالمعنى المألوف . بهيميا صرفا . ولم يتصور المرأة أما ولاروحا دافئا .. يشتهيها بأعصاب ولحم ودم كما يشتهى طبخة المكرونة التى يحبها بالجبنة المبشورة . ولاتزيد ليونة الأنثى فى نظره على ليونة العود المسلوق من مكرونته الحبيبة ولاتثنيه ولانعومته . كالطفل يرفع كل شىء إلى فمه ويترجم كل مظهر إلى طعام أوشراب .

لكنه كان مستور الحال ، حتى إن بنت صاحب البيت حين داعبته لم تلق منه ترحيباً حارا على الرغم من العش الهادىء القائم فوق السطوح ، حيث

كان من المستطاع أن يلتقيا فى يسر وسرور .

ولما اعترضت عليه ذات ليلة بعد أن جرى دفء الشاى فى أجسام ونحن ساهران فى أمسية شتوية ـ أجابنى ببساطة :

ـ ماذا أعمل بها ياصديقى ؟.

ـ وهل هذا سؤال ؟

ـ نعم سؤال .. إننى أريد مأربا أصرح من الجوع واريح من الشبع واللف والدوران حوله لايخلف إلا المشاكل ، وهذه العذراء .. آه .. لاحاج لى بها .

وهز كتفه فلم ألمه .. إنه لم يستطع أن يرى الناحية الأخرى من هذ الكائن اللطيف . هو يريد أن يمسك كل شىء بيده أو يلمسه برجله ، وحتى إحساساته القلبية لاتأتى إلا فرعا من لمسة اليد أو لفة الرجل . تماما كحلاو التجشؤ بعد ملء المعدة.

***

ماذا أصنع لحسين صديقى هذا ؟

هل أستطيع أن أهدمه ثم أعيد بناءه ؟. ذلك مستحيل . إنك لاتستطيع أن تجعل الفخار فى شفافية الزجاج مهما حاولت بالصقل والتلميع . هذا طينة ، وهذا طينة .

على أننا فى إحدى اليالى اتفقنا على شىء واحد .

قال لى بعد أن مسح طبقا من المكرونة ذات الجبن المبشور واستهلك طبقا من المخلل :

ـ اسمع . سأحاول أن أضمك إلى مذهبى . سأجعلك تنزل من السماء وتعيش على الأرض .. انتظر حتى أصنع برادا من الشاى ونتناقش فى الموضوع تحت ظل الرشفات .

وفعل .. وجلس يشرح لى ما أنا فى غنى عن العلم به . مذهبه الجسمى الطينى الواقعى البشع . ثم استدرجنى إلى أن بحت له بأننى لم « أعملها » قط . أنا هائم فى الأرواح ومع الأرواح ولن أنزل حيث يقيم .

وضحك فى طيبة ، لم تغضبنى قط . كان كصاحب مذهب يدعو إليه بالحسنى .. وحدثنى فى خبث عن الأحلام الحقيقية .. نعم الحقيقية ـ هكذا قال ـ التى يلقاها الشاب فى الحب الحقيقى ..

ــ هل أنت من الذين يحتفظون بالوردة التى تهدى إليك بيدها حتى تجف ثم تودعها فى قلب قصة غرامية .. وتقفل القصة على حطام الوردة عشرين عاما ؟ .. هل أنت من هذا النوع ؟ .

وجعل يقهقه . وعدت أنا أناقضه وأتهمه بأنه يفعل كل شيء بطريقته فى أكل المكرونة ، حتى لو عبد الله أولقى أمه بعد غيبة مرة .

فما كان من « حسين » إلا أن لبس وخرج وتركنى وحدى أضرب أخماسا فى أسداس .

وتقدم الليل ومرت عدة ساعات أحسست خلالها قلقا عليه ، وفتحت النافذة فرأيت نوافذ الحى كلها مقفلة . والجو بارد . وفى السماء سحاب ينذر بشيء من المطر . وتلال المقطم سوداء جاثمة فى الليل مبهمة تشيع فى النفس غموضا قلقا .

ووحوحت وأنا أقفل الشباك . وصرصرباب السطوح بيد الهواء أو القطط . لست أدرى .. وعجبت كيف ينام هذا الشاب وحده فى مثل هذه الليالى وتصورت نفسى مكانه وأننى مريض بالحمى أريد أحدا يسقينى أو يساعدنى على النهوض إلى المرحاض البعيد لأقضى حاجتى .. ياله من بطل!

ولم أسمع وقع أقدام .. كل ماحدث أننى رأيته داخلا على وعلى وجهه أمر صامت موجه إلى .. بالسكوت .. بعدم الاعتراض .. بعدم الصراخ أو

مغادرة المكان أو ابداء أية حركة .. وإلا كانت فضيحة .

وفى الظلام النسبى المخيم على السطح أمام باب الحجرة كانت هناك امرأة لاتزال واقفة ، فى جسمها رعدة من البرد .. وربما من الخوف .. ودخلا وأقفلنا الباب .

لم يكن هناك مجال للكلام . وكنت فى حرج من أمرى . أما هو فكان يتكلم كأن شيئا غير عادى لم يقع فى الحجرة .

كانت فى ثوب من الصوف يبدو جيدا أنه مصبوغ . خفيف وحيد لايعاونه شال ولامعطف . فى قدمها حذاء من الكاوتش يساعدها على التسلل فوق سلالم البيوت . وحقيبة يدها حمراء اللون فى حين أن فستانها أخضر . والحذاء بنى . كل ما يساعدها ضد برد الليل هو منديل من الصوف شدته على شعرها « الأكرت » وكانت ضئيلة العود يمكن أن تحملها تحت إبطك . غير ذات جمال لكن الذل والحاجة والجاذبية كانت تتعارك على محياها .

ترجوك بالذل أن تحميها ، فتذكر أن حمايتها فى احتضانها .

وترجوك بالحاجة أن تعطيها فتذكرأن لكل شيء ثمنا .

وبنداء الجاذبية قد تنسى كل مافات فلا تذكر إلا أنها امرأة .

وفرش « حسين » على المنضدة ورقة فيها سمك وقرطاسا فيه برتقال وشيئا من الخبز والجبن والحلاوة ، وكان فى الحلة بقية مكرونة .. وجلسنا نتعشى .

ــ كنت طول الوقت فى حمى بلا حرارة . أغلى فى سكون كما يغلى الماء تحت سطح الأرض .

وفرغنا من الطعام وخرجنا نغسل أيدينا أنا وحسين . وهناك فى دورة المياه حدثنى عما يجب أن يعمل . وأنه سيبقى هنا ـ حيث نحن الآن ـ



مدة ما .. و ..

وامتثلت للأمر وقبلت الواقع دون أن أنبس بحرف .

وماكدنا نهم بدخول الحجرة حتى سمعنا وقع خطوات على السلم . وأطل « حسين » من بئر السلم وهتف :

ـ أهلا .. بابا .

وأشار إلى أن أدخل بسرعة فأجعلها تختفى فى الركن المعهود . مادام الوقت قد فات . وفى المثلث الذى يصنعه وضع الدولاب مع أحد الأركان دخلت المرأة بعد مقاومة شديدة .

وفورا دخل الأب .

كان يحمل « سبتا » فيه هدايا الريف . وحملق فى المكان كأنه شم رائحة غريبة . وكان « حسين » فى هدوء يحسده عليه أكبر البلداء . وزاد الترحيب والضحك الهستيرى . وجلست أنا أترقب كحة أونحنحة تصدر من المخبأ حيث تجلس القرفصاء امرأة لاذنب لها .

وهممت أن أستأذن فقال « حسين » ببداهة وراحة وهدوء :

ـ طبعا .. لكن بعد أن أسألك سؤالا واحد فى الرواية الإنجليزية المقررة علينا ..

وفتح الرواية . وقال لى بالإنجليزية وكأنه يطالع فى الكتاب جملة أوجملتين خرجت بعدهما إلى المطبخ المنعزل وهناك ارتفع صراخى .

وجاء إلى الضيف وابنه يسعيان لينظرا ماذا حدث ، وأخذت أتلوى مدعيا أن شيئا مالسعنى فى أناملى وأنا أفتح صنبور المياه .. قد يكون عقربا ، وقد يكون نحلة ، وقد يكون أبو شبت .

وكما يتفاعل الممثل مع دوره حتى ينسى أنه على المسرح أثرت مخاوف « حسين » وأبيه حتى ظن « حسين » أن المسألة حقيقية ، وأننى قد

أذهب ضحية الأكذوبة كما غرق الراعى الذى كان يسخر من أهل القرية بادعائه الغرق . فلما جاءه الغرق لم ينقذه إنسان .

وكان الرجل يحوقل ويفتش وينادى بشهامة الريفى بوجوب اتخاذ عمل حاسم .. ثم هدأت الأحوال ، فرجحنا أنها لسعة نحلة .

ودخلنا إلى الحجرة فكان المخبأ قد خلا من السكان

***

فى ميدان السيدة ، ذهبت لأركب عائدا إلى بيتى ، فوقع بصرى على المرأة النحيفة سائرة مع رجل آخر. وكانت تتحدث معه بصوت عال يدل على الاضطراب .

ولما التقينا فى المدرسة صباح اليوم التالى كان حسين فى مرح شديد . أما أنا فكنت فى ذهول من نجا من حادث . ولما سألته :

ــ هل ستعملها ثانية فى حضورى ؟

قال باهتمام :

ــ نعم .. سأبحث عنها فى كل ميدان .

ــ هل سرقت شيئا ؟

فمط شفته فى أسف وقال :

ــ ياريت .. لقد سقط منديلها الصوفى فى المخبأ وراء الدولاب .

فتذكرت أنى رأيت شعرها « الأكرت » حقيقة بلا منديل ، ساعة كانت ماشية مع الرجل الآخر فى ميدان السيدة ، ولعلها من أجل منديلها كانت تتكلم بعصبية .

الكتيبة الصغيرة

كان هيكل المركب الشراعى القديم عند شط البحيرة ناديا يلتقى عنده الصبيان من كل سن حيث يلهون ويلعبون ويتحاربون ويصطلحون . وقد رفعوا على مقدمته فى هذه الأيام علما هو فى الأصل منديل من الحرير الأخضر لإحدى الأمهات . وكتبوا على حافة المركب بالطباشير وحفروا على خشبه بالمسامير عبارات تتناسب مع رفرفة العلم : « مصر مقبرة الغزاة » .. « إلى الأمام يا شباب النيل » .. « نصر من الله وفتح قريب » ..

وقلما كان أبناء الصيادين فى هذه المنطقة من الشاطىء يتخلفون عن الاجتماع فى هذا المكان ، كان بالنسبة إلى أحلامهم وألعابهم كخشبة المسرح بالنسبة إلى الرواية حتى إن إشاعة واحدة عن قرب إصلاح المركب وإنزاله إلى الماء كانت كافية لأن تنزل الهم إلى قلوبهم الصغيرة .

وارتفعت شمس ذلك اليوم والعلم يرفرف فى سكون على مقدمة المركب، ولم يكن أحد من الصبيان قد حضر بعد إلى المكان . وماء البحيرة يتهادى فى موجات رتيبة نحو الشاطىء ، والأكواخ المتفرقة التى تسكنها طبقة الصيادين هادئة كأنها تأخرت فى النوم . وعلى المنطقة بجملتها جو خريفى ثقيل لا يشرح الصدر كأنه لزج أو كأنه هلام .

وشيئا فشيئا أخذ الصبيان يتوافدون ..

كان فى عيون بعضهم بقايا نوم وعلى شفة أحدهم شىء من فتات الخبز . أما أكبرهم فكان مملوءا باليقظة . وجلس بعضهم فى بطن المركب وجلس بعضهم على حافته وظل بعضهم واقفا بجانبه والعلم يخفق مع النسيم . ومن أغرب ما يلقاه المرء فى حياته أن تسيطر فكرة ما على عقول

صبيان . إن أفكارهم كتيار الماء نحو المنحدر لا يمكن أن تكف عن الجريان ، ولكنهم كانوا فى الضحى واقعين جميعا تحت سلطان فكرة واحدة ، وكان السبب واضحا سهلا طبيعيا بسيطا . هو أنهم فى الليلة الماضية سمعوا فى الأكواخ من أفواه الآباء والأمهات حكايات وأحاديث وتنبؤات وتعليقات تدور حول شىء واحد هو معركة الحياة التى كانت رحاها دائرة فى مياة القناة ..

قال أكبرهم ـ وهو غلام فى العاشرة أسمر قصير مفلفل الشعر :

ـ كان أبى فى الليلة الماضية يحكى لأمى عما صنعه خالى فى الإنجليز .. إن خالى رجل شجاع يا أولاد .. إنه جزار فى بور سعيد وقد حلف ألايذبح فى هذه الأيام إلا الإنجليز ، وعلى ذلك فقد ذبح منهم عشرين فى يوم واحد ..

قال أحد الصبيان وهو يثب على حافة المركب ليقف على الأرض :

ـ عشرين ! ؟ هذا قليل . لو كان أبى مكانه لذبح ثلاثين . لقد سمعته ليلة أمس يقول لأمى كلاما .. وكانت تبكى وتضحك . لقد أكد لها أنه سيذهب إلى هناك ليقتل الإنجليز .. وقال لها : « إذا طال غيابى فلا تحزنى من أجلى .. »

وأكد صبى ثالث أن أباه قادر على أن يقتل أربعين ، وارتفعت الأرقام بسرعة فى المزايدة الحماسية ، وهبت من الشمال نسمات كادت تنقلب إلى ريح فصخب بها الماء فى الوقت الذى ارتفع فيه صوت العلم إلى خفقان شديد . ولم يبق أحد من الصبيان جالسا فى مكانه ، صاروا كلهم واقفين كأنهم على أهبة أن يفعلوا شيئا . واستطرد أكبرهم يقول لهم :

ـ سيأخذنى أبى معه يوم يذهب إلى بور سعيد ..

وسأحمل بندقية .

ثم أخذ وضعا عسكريا معينا وأخذ يطلق الرصاص من بندقية وهمية

على أعداء يراهم بعين خياله ، وانسابت حرارة الحماسة إلى بقية الصبيان فصاروا يقلدونه . وأخيرا رحلوا نحو الأكواخ .. إلى حيث عاد كل منهم بعصا جعل منها بندقية ، ومالبثوا أن ألفوا كتيبة من الجند وحولوا جلابيبهم إلى حلل بأن وضعوا أذيالهم فى فتحة الصدر . وجاء أحدهم بصفيحة فجعل منها طبلا ، وأخذت الكتيبة الصغيرة تطوف أرجاء الساحة الرملية الخالية من الشجر تحت شمس الضحى وعلى دقات الطبل ، يتقدمهم ذلك الأسمر المفلفل الشعر ، حتى إذا ما أحسوا بالتعب لجأوا ثانيا إلى هيكل المركب وجلسوا يستريحون .

كان العلم لايزال يخفق ونساء الصيادين على سطوح الأكواخ وعلى مقربة من أبوابها يراقبون حركات أولادهم بشفاه عليها علامات الإعجاب والقلق . كانت الأنباء تأتى فى كل ساعة بتفاصيل بطولات حقيقية كأنها من الأساطير .

ووضع المعدن المصرى فى البوتقة العالمية فثبت أنه من الذهب فقلب المزيفون أكفهم فى حسرة كئيبة وجعلوا يتساءلون : « هل هذا صحيح ؟» .

وعاد أكبر الصبيان يحكى حكاية عن امرأة خاله :

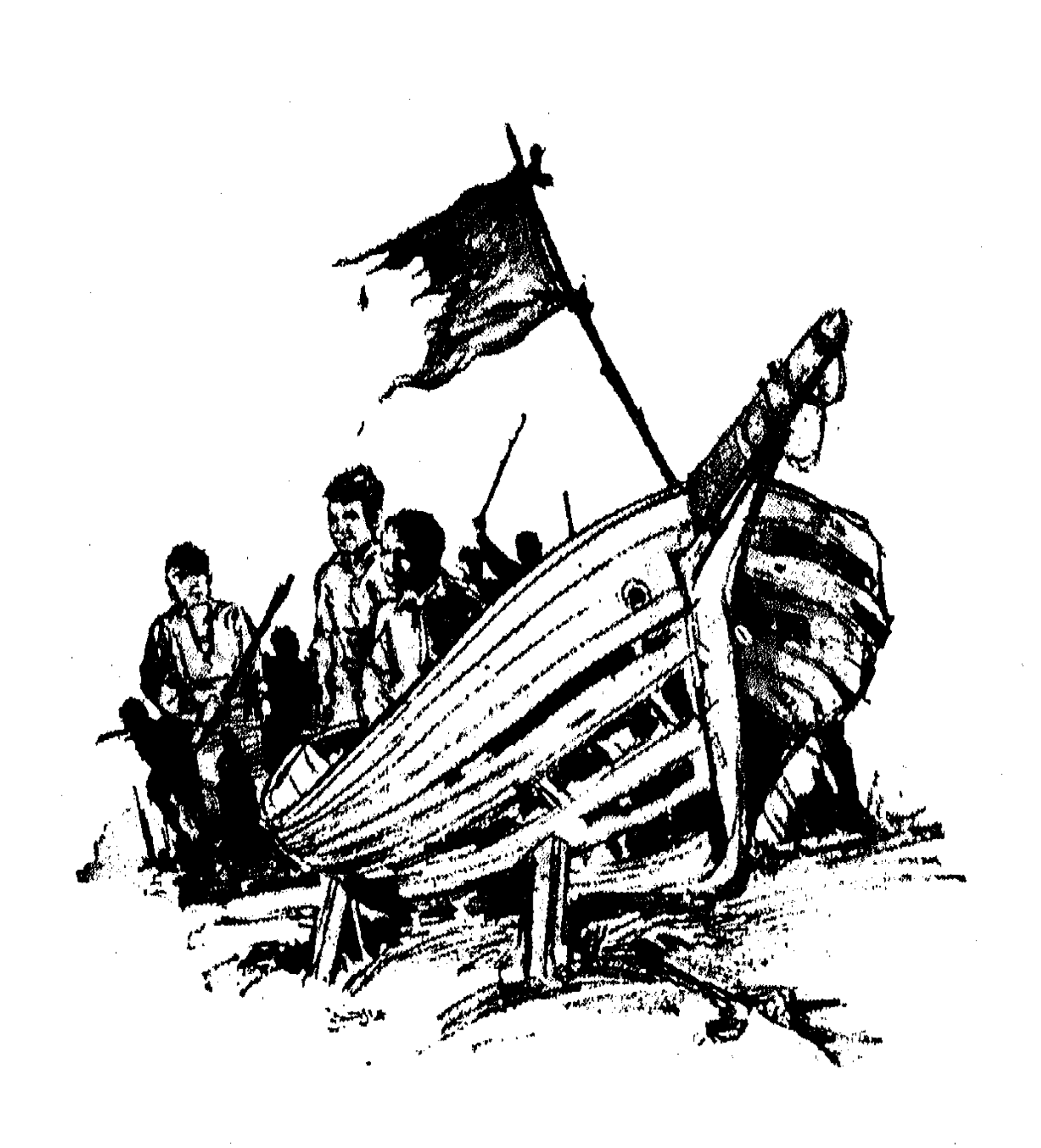
ــ إنها امرأة جزار تحب أكل الكبدة .. ولذلك أكلت كبد واحد فرنساوى .

وضج الصبيان بالضحك . وأخذ بعضهم من شدة المرح يضرب بعضا . ونتيجة لهذه الحركة اقترح أحدهم أن ينقسم الجمع إلى فريقين متساويين يحارب كل منهما الآخر. لكن واحدا منهم اعترض قائلا :

ــ ومين حيرضى يكون إنجليزى ؟

وجاءت الأصوات تقول فى حماسة :

ــ ولا أحد ..



وفشلت الفكرة بسرعة . وظلت المجموعة تئز فى مكانها كأنها قوة تريد أن تتحرك . وقال أكبرهم :

ـ نلعب عسكر وحرامية !

فجاءت أصوات موافقة . لكن صبيا ذكيا علق على الفكرة قائلا :

ـ إحنا العسكر والإنجليز الحرامية . « ح نحارب .. ح نحارب . ح نحارب حتى النصر » .

وأخذ الجميع يرددون النشيد ودقات دف الصفيح ترن على الشاطىء الساكن ..

***

ولم يمض على انتهاء النشيد وقت طويل حتى كان هناك مشهد غريب. كان الهيكل القديم للمركب الشراعى هو هدف الهجوم للفريق الذى أطلقوا عليه اسم « الحرامية » . وعسكر الفريق الأول على مقربة من المركب وفى مقدمتهم الغلام القصير الأسمر . وبدأ الفريق المهاجم يضرب الأرض بالعصى فثار الغبار وطن الصوت عميقا كأنه خارج من شىء أجوف ، وبقى الفريق الأول فى مكانه يدافع عن المركب لايتزحزح عنه قيد أنملة حتى صارت أطراف العصى على مقربة من أقدامهم إذا كانت على الأرض وعلى مقربة من وجوههم إذا كانت فى الهواء . وضحك فريق « الحرامية » في نشوة ومرح وأخذ جزء منهم يلتف حول المركب . وفجأة جرى الحماس فى أوصال الفريق الثانى فاندفعوا نحوهم فى هجمة ردتهم إلى الوراء .

كان النساء على سطوح الأكواخ والكهول الجالسون فى الشمس يرقبون المعركة من خلال أهدابهم ويدعون لمصر بالنصر . مصر التى تحارب فى الميدان الحقيقى فى هذا الوقت من شهر نوفمبر . وقال صياد عجوز وهو يمد ساقه فى الشمس ويتحسس مواضع الآلام التى خلفها الروماتزم :

ـ والله زمان .. فكرتونا يا أولاد باللى كنا بنعمله أيام عرابى واحنا لسه عيال .. لكن المرة دى ح ننتصر ...

ورفع إلى السماء وجها حوله لحية وابتهل إلى الله الذى يسمع دعوة المظلوم ..

أما فريق « الحرامية » فى هذه اللحظة فقد كان يجمع شتاته .. وبدا هيكل المركب القديم ـ حتى لعيون الكبار ـ كأنه وطن ضخم ينبغى أن يدافع عنه ، وتراقص العلم فى مقدمته بخيلاء شىء يحس أن حوله من يدافع عنه. وتأهبت عصى للهجوم واستعدت عصى للدفاع وبدأ « الحرامية » يضربون الأرض وانبعث الصوت عميقا كأنه خارج من شىء أجوف لكن فرقة الدفاع ظلت فى مكانها لاتتزحزح ..

وكانت أطراف العصى تلمس وجوههم من جديد وأخيرا.. هجمت فرقة الدفاع على الحرامية وضربوهم ضربة حقيقية فانقلبوا يصرخون ..

ونزلت الأمهات من على سطوح الأكواخ وقام الكهول من أماكنهم فى الشمس ومشوا نحوالصبيان ليفرقوا جمعهم قبل أن يحدث خطأ ما . وكان العلم لايزال يخفق على مقدمة المركب وأمواج البحرتتهادى فى سكون .

وعندما حل وقت العصر لم يكن أحد من الكبار خارج الأكواخ .. وكان فى السماء غيم وبوادر المطر تبقع وجه الرمل . وخرج أكبر الصبيان فأطل على العلم المرفوع مخافة أن تكون يد «الحرامية » قد عبثت به . ولما وجد كل شىء على مايرام أرسل بأصبعيه صفيرا جمع حوله الصبيان من كل كوخ ووقفوا يلعبون ولم تخطرمعركة الصباح على بال أحد .

وصاح أحدهم فجأة :

ـ هل ترون يا أولاد ؟ إن الأمواج ستحمل إلينا هدية جميلة .

ـ إنها بطيخة .

ـ يحتمل أن تكون بطيخة .. لكن .. إنها ليست مستديرة كالبطيخ .
ـ أوه .. لقد رجعت بها الأمواج ..
ـ لاتحزنوا .. فإن الحداية لاترمى كتاكيت .
ـ لقد ظهر جيدا أنه ظهرسمكة .
ـ كبيرة جدا .. إنها تشحن زورقا .
ـ عادت الأمواج تحملها من جديد .
ـ هات خطاف أبيك يا عبده لنجرها به إذا اقتربت من الشاطىء .
ـ هذه أحسن فكرة .

ثم شردت عيون الصبيان فى اتجاهات شتى . ونظروا جميعا نحو كل أفق . وأخذ الموج يتعب بحمولته الغامضة ساعة من زمن حتى إذا ما أدرك الصبيان أن فى استطاعتهم النزول إلى الماء فعل أكبرهم وجروها بالخطاف .

لكن دهشتهم كانت شديدة حين ألفوا بين أيديهم جثة لأحد عساكرالإنجليز .

وعلا ضجيج وصراخ وتصفيق وصفير وضحكات نابعة من صميم القلب أرسلها الصبيان . وخرج بعض الآباء والأمهات ينظرون الخبرفشاهدوا على الرمل جثة عملاق بكامل عدته وقد اخترق الرصاص العادل جسمه فى أماكن شتى ، وعلى الوجه البنفسجى خوذة من الفولاذ ، والأنف قد سطت عليه سمكة وكان على الشفة المتقلصة علامة استفهام عن الدوافع للمغامرة التى قاموا بها ؟

وكان بين الجثة التى لفظها البحر وبين هيكل المركب الشراعى الذى دافع عنه الشرفاء فى لعبهم وقت الصباح سبع خطوات فحسب ، والصبيان ملتفون فى دائرة كاملة حول الجثة ينظرون فى شرود . ولم يتكلم أحد حتى

جاء أكبر الرجال سنا فى هذه المنطقة ، رجل من الصيادين عرك الزمان وامتطى ظهر التجارب ، وتعرض للغرق على ماء البحيرة ألف مرة ، ولقبه قطاع الطرق عند عودته فى الليل ، وكان أحد الجالسين وقت الصباح فى الشمس يتحدثون عن التاريخ ويبتهلون إلى الله لأنهم من القاعدين . قال عم عوض الله :

ـ شوفوا ياأولاد .. كان جاى بسلامته يفتح بلادنا من تانى .. شوفوا يا اولاد صابه إيه ؟ كان بيحلم بزبدة مصر وشمسها وفاكهتها نهار ما ركب المركب من هناك ، ولاكانش ييجى على باله إن فيها نار وحديد .

وطلب أحد الصبيان أن يأخذ الخوذة فعلمه عم عوض الله إننا نكرم الموت ولانمثل بالموتى .. لكنه حقق لصبى آخر رغبة شديدة فى أن توضع الجثة على مقربة من المركب ..

وكان العلم يخفق ، يخفق بخيلاء شىء يحس بأن هناك من يدفع عن كيانه . وادعى بعض الصبيان أن أباه هو الذى قتل هذا القرصان . ونظرت زوجة أحد الصيادين إلى رقعة العلم التى أخذت من منديلها وابتسمت . وسار عم عوض الله بخطى واهنة نحو الأكواخ فى الوقت الذى أسرع فيه أحد الشبان ليخبر أولى الأمربشأن هذه الجثة .

وحين أقبل بعض رجال الشرطة ليعاين الحادث كانت الساحة الكبرى على شط البحيرة تدوى بدقات الطبل ، وكتيبة الغلمان تقوم بالعرض العسكرى ، وأناشيد الحرية تجلجل فى الأفواه البريئة ، والجثة ممدودة على مقربة من المركب الشراعى ، والعلم أخضر يرفرف ويرفرف .

شريط النور

كانت رطوبة الليل قد نزلت على الأسوار النباتية فى الضاحية الجميلة. والنور ينصب من المصابيح على الخضرة ليلمسها برفق . و « الفيللا » الواقعة فى طرف « المعادى » ساكنة مغلقة النوافذ لاينبعث منها نور لأن سكانها فى المصيف ، على الرغم من أن الصيف يجمع بقية لياليه .. لينصرف .

وفى الجنينة المحيطة بالفيللا حجرة صغيرة على بعد من الباب ، يسكنها رجل يحرس البوابة فيسمى « بوابا » ويخدم الجنينة فيسمى « جناينيا » .. وفى سقف حجرته مصباح صغيريخرج نوره من الباب المفتوح على هيئة شريط يفرش المشى المواجه حتى يتلاشى نهائيا على مقربة من السور المقابل . أما بقية المكان فكانت ظلاما ، والهواء ينشط فيشخلل بورق الشجر ثم يسكت فجأة كأنما أمر بالسكوت .

وتوقفت الخطوات الوانية الرتيبة عند الباب . وأخرج صاحبها من جيبه مفتاحا وفتح الباب الرئيسى ثم دخل إلى الحديقة .

وكان الممشى الذى وقف عند أوله يوصل ـ بطبيعة الحال ـ إلى سلم السلاملك ، ولم يسمع البواب ولازوجته دخول أحد ، وكان جوهما غريبا فى هذه الليلة . فهناك ضحكات عالية يتخللها صوت وليد صغير يحاول أن يشارك فى المرح ـ تتناهى إلى سمع الواقف على شكل يثير الفضول ..

ووصل إلى باب السلاملك وأدار فيه مفتاحا وأشعل النور فى الصالة فسقط على الأثاث . وبدا المكان كما ترك لم يتغير فيه شىء كأنه ينتظرعودة سكانه بإخلاص لأن فنجان القهوة الذى تركه على منضدة « الأنتريه » لم

يرفع من مكانه . وفيه بقية البن وإلى جنبه عقب السيجارة .

ولم يحس البواب ولا زوجته بشيء مما حدث أيضا ، فتخيل الرجل نفسه لصا وأنه تسلل إلى الفيللا بنفس هذه الطريقة ، في وقت باكر من الليل لايثير مخاوف الحراس قلما يحدث ؟.

وداخله غيظ كان سببه الظاهر أن البواب الجناينى ، أو الجناينى البواب لم ينتبه له . أما السبب الخفى الذى لم يحس دبيبه فى نفسه فهو ذلك المرح الذى كان يفوح من الحديقة معطرا كأنه الزهر. لماذا يفعلون هكذا هم الثلاثة وهم ينامون فى ثلاثة أمتارمربعة ، كل منهم يخصه متر واحد ؟ لماذ لايخيم مثل هذا الجو على مسكنه هو، لا فى المشتى ولافى المصيف ، ولافى أى فصل من فصول السنة ؟ .

وعلى الرغم من أنه لم يسأل نفسه هذا السؤال فقد أطفأ النور فى الداخل وخرج إلى « فراندة » كأنه يبحث عن الجواب فى سكون الليل . لقد ترك زوجته وولديه فى الإسكندرية وجاء لبعض شئونه المالية وحيدا ليبيت ليلة ويعود .

وفجأة رأى حجرة الجناينى أمام عينيه يفرش النور أرضها ويتسلل إلى الخارج . وتشيع فيها بهجة وضجة وضحك وعشاء . وتدخل الوليد بين أبويه ووابور الجاز مزوى إلى الركن يغلى عليه ماء الشاى فى إبريق كبير

وسحب كرسيا وجلس ، وبقى نوره مطفأ . وأخذ يرقب المنظر الممنوع فى لذة لم يستطع ضميره أن يقهرها قط .

***

كان الزوجان فى الثلاثين من عمرهما على التقريب ، قرويان فيهما بركة الريف وسخاء الريف واعتماده على الطبيعة فى كل مايطلب . وكانا يتحدثان على العشاء . تلمع الشهية من بعد فى حركات الرجل . وهو يميل

نحو الطبلية ليقابل اللقمة في منتصف الطريق ثم يعود بها إلى الوراء .. وهكذا كانت تفعل امرأته .

الزوج عالى النبرات ضخم الصوت ، تكلم فى شئونه اليومية . ثم ذكر اسم أحد الجناينية من الجيران كان رب البيت يعرف اسمه . فقال عنه زميله : إنه لن يأتى إلينا الليلة ليسهر معنا . لقد سافر إلى بلده ليرى أمه .. قالوا إنها مريضة ، وربما أدركتها الوفاة .

فردت امرأة الجناينى بالرد التقليدى الذى يذكره الفقراء عند كل طارىء :

ـ ومن أين له المال يا ترى ؟

ـ من الأستاذ زغلول .. الأستاذ زغلول رجل طيب . لايتأخرعن طلب أحد .

وأحس الجالس أن اسمه على وشك أن يذكر . لماذا ؟ لأن الضد يذكر بالضد ، فالأستاذ زغلول رجل سخى اليد حقا . أما هو فإن الناس يقولون عنه إنه بخيل ، ولو أنه شخصيا لايعترف بهذه الأكذوبة .

وعاد يسأل نفسه وعيناه تتعثران فى ظلمة الحديقة :

ـ هل أنا بخيل حقا ؟ ربما سمعت رأيهم الآن وأنا جالس فى مكانى .

وكان الجناينى يقهقة فى هذه الوهلة كأنه سمع سؤال صاحب البيت . ضحك حتى كاد رأسه يلمس الحائط من ميله إلى الوراء ثم قال لزوجته :

ـ أما « صاحبنا » فهو من الذين يضيعون الجنية ببساطة .. ثم يبكون على المليم ..لايبخل إلا على المساكين . الله يسامحه .

ـ لو كنا مكانه لكان من الجائز أن نفعل مثله .

فتمتم الزوج وهو يمضغ الطعام وكأنما وجد نفسه أمام قضية تحتاج إلى شيء من التعقل ..وسيطرت على الحجرة لحظة صمت كأنما لتتيح له أن

يفكر.. ماكان ينبعث فيها إلا أزيز الوابور وصوت النسيم فى الشجر. قال بعدها الزوج وكأنه وصل إلى قرار:

ـ أنت فى بعض الأحيان تظهرين بمظهر العقلاء . أى .. لست أدرى ؟ .. أهذا عقل أم هذه طيبة قلب . لقد ذكرتنى بحكاية ...

ـ احك ياخويا..

ـ قبل أن نرحل إلى المدينة قضيت عمرى بطوله وأنا أركب الحمير . لم أركب حصانا قط .. ثم أتاحت لى الفرصة أن أركب الحصان للمرة الأولى..

فقاطعته زوجته وهى تضحك في نعومة عجب صاحب البيت حين سمعها . وأدرك بعدها أن مظهر امرأة مافى النهار قد لايعبرعن حقيقة مظهرها فى الليل . قالت الزوجة :

ـ ركبت الحصان ؟ .. هىء هىء هىء . ياحلاوة .. ياريتى شفتك وانت مجعوص على السرجة آل ورجليك فى الركاب .. وعرفت ؟ ياصلاة النبى .

وعادت تضحك كأنما لتستفزه ، مقربة وجهها من وجهه ، وشاركها الصبى بضحك مفتعل . ثم استطاع الزوج أن يواصل الحكاية :

ـ ومشى بى الحصان واحدة واحدة .. وكان جسمى يهتز من أعلى إلى أسفل مثلما تكونين فوق كرسى هزاز لين ناعم .

ثم أخذ يقلد بجسمه حركة اهتزازه على حصان . وتوقف الجميع عن الأكل واندمجوا فى الضحك . وعادت الأنوثة تفيض من ضحكة امرأة الجناينى ، ثم استطرد والجد يلون نبرات صوته :

ـ وبعد خمس دقائق تماما أحسست أنى منفوخ من تبختر الحصان بى . أنا والله لا أقول إلا الحق . وحين مررت على أحد معارفى من الفلاحين ألقيت عليه التحية بعظمة ورفعت يدى بكبرياء كما يفعل مأمور مركزنا وهو

فى الطريق إلى دوار العمدة . صحيح والله العظيم . (وهمس بمرح) : الفقر يا مغفلة يعلم التواضع ، والغنى يامغفلة يعلم .. ولم يكمل . بل داعبها بأن ضربها على نفسها بكفه فأمسكت أصبعه بأسنانها ، فصار يتأوه وهو يضحك ، وتدخل الصبى فشد أمه من شعرها . وساد هرج ومرج . ورفرف النسيم فى ذوائب الشجر، ودخل صاحب البيت إلى الصالة فأخلى الطريق لضحكة خاف أن يسمعوها . ثم مالبث أن عاد إلى مكانه من « الفراندة » .

وبدأوا يشربون الشاى ورقد الصبى فى حجر أمه ورفرف على المكان هدوء ساحر. قال صاحب البيت فى نفسه حين رأى جمال كل هذا :

ـ إن لحظات من الراحة تنسيهم متاعب العيش ، لولاها ـ فى الحقيقة ـ لعجزوا عن مواصلة السير.. آه .. يأكلون بشهية ، ويشربون بشهية ، ويضحكون بشهية ، وينامون بشهية ، وبالشهية يفعلون كل شىء. لماذا ؟

هز رأسه لأنه وجد الجواب : لأنهم لايعيشون إلا فى « اللحظة الراهنة » ولاتعدهم الحياة ولاتمنيهم ، ولاتغشهم ولاتخدعهم .

ـ وهذه هى الميزة الوحيدة للفقر .

وكان صوت رشفات الشاى يصل إلى سمعه وهو جالس ، وأشعل الجناينى سيجارة ونفث الدخان بعنف ، ثم قال لزوجته :

ـ لقد قرب ميعاد ولادتك فيما أظن ..

ـ قرب ..

ـ نريد مالا ، وحلبة ، ودجاجا ، وشمعا للسبوع ، وبعد مايعود « صاحبنا » من الإسكندرية سأقترض منه ثلاثة جنيهات لهذا الطارىء .

ـ وإذا لم يرض ؟

ـ ....

ولم يسمع صاحب البيت الحكم الأخير عليه . حشرجت فى صدره كحة فدخل ليخلى لها السبيل فى الصالة ويعود . ولما رجع كان الهواء أكثر رعونة . والوليد نائم مكان كل ليلة بعيدا عن حجر أمه . والزوجة مستغرقة فى الضحك وهى تطلب من الجناينى أن يعيد على مسمعها وصف حاله يوم ركب الحصان للمرة الأولى . فأخذ يترقص ويترقص وهو يقول : « شى .. شى . » حتى اقترب منها فتماسكا وقاما إلى الباب فأغلقاه ، فانقطع شريط النور الذى كان يفرش العشب وعم المكان سكون أعمق ، فسحب الرجل كرسيه « عائدا إلى الداخل ».

***

وجرى « الجناينى البواب » مدهوشا نحو السلاملك حين رأى وقت الصباح إحدى النوافذ وهي تفتح . ووقف يفرك كفيه أمام صاحب البيت ويسأله عن وقت دخوله المسكن فى ذعر وخجل ، فقال له بهدوء :

ــ منذ ساعة فقط . قبل شروق الشمس بلحظات . ليس هناك مايدعو إلى الاعتذار.. أرجو أن تجهزوا لى طعام الفطور.

وانقضى اليوم عاديا جدا بالنسبة لأسرة الجناينى . ثم سافرصاحب البيت آخر النهار ، ودخل الزوج إلى حجرته ذات الأمتار الثلاثة وأشعل المصباح ووضع العشاء وجلس الصبى وعادوا يتكلمون . قالت الزوجة :

ــ بعد اسبوع واحد سيعودون جميعا من الإسكندرية .

ــ تمام . على الأقل نستطيع أن تقترض منهم مبلغا من المال .

ــ ولو فرضنا أننى ولدت قبل عودتهم ؟

فأجابها مداعبا :

ــ لايجب أن تلدى قبل عودتهم أبدا .. يجب أن تصبرى حتى يعودوا .

ــ أنا لاأطيق المزاح فى هذه الليلة .. أننى أحس بالتعب .

ـ لقد اقترضت ثلاثة جنيهات من الأستاذ زغلول فلا تحزنى .. تجرأت وفعلتها لأنى واثق أن « صاحبنا » لن يمد يده إلى بقرش واحد ..

ـ هل جربت وطلبت منه ؟

ـ جربت وطلبت منه .

ـ وامتنع ؟.

فاستغرق الزوج فى الضحك وقال :

ـ من الغريب أنه وافق .. أعطانى بسرعة من كان يأخذ لايبخل ممن كان يعطى .. تصورى .. !

فشهقت الزوجة :

ـ غريبة .. الحمد لله . آه لوسمع ماكنت تقوله عنه ليلة البارحة .. أما أنا فقد قلت كل خير . لماذا لانفرض حين نتكلم عن الناس فى غيابهم أنهم يسمعون مانقوله عنهم ؟.

فأكمل فى فلسفة :

ـ ياه .. ولماذا تفرضين فرضا سيئا .. ربما لو كان سمعنى لعرف عيوبه وعدلها . ليس من الضرورى أن يظل الردىء رديئا .آه يا أم عبده .. يابنت يابنت .. أسرعى بالولادة لأشترى لك الدجاج والمغات ..

عزيزتى كاترين

إن الحقد لا ينصر قضية .

والقضايا التى تنتصر هى ذات الأسباب

الواضحة فحسب .

٨ نوفمبر ١٩٥٦

كان صديقى « هاردى » آخر الذين قتلوا برصاص المصريين بين من أعرف من الرجال ، وهأنذا أعود إلى استئناف إطلاق النار . كان شىء ما يسيطر على يقينى طوال أيام المعركة فى مدينة بور سعيد .. هو أننى سأموت فى اللحظة التى تبدأ الغيوم تلم أذيالها فيها .. بمجرد أن يسيل دمى على الأرض ستخضر الأرض بالسلام . لكن هذا المصير يا عزيزتى كاترين كان من نصيب « هـاردى » وحده فلما مـات « هاردى » سكن كل شىء .

لن أحدثك عن مصر الآن . فدعينى أذكرك بذلك الفلاح العجوز الذى كنا نمر به أنا وأنت فى إنجلترا كل يوم أحد ، ونحن فى طريقنا إلى النزهة . كان ينظر إلينا من شباك كوخه ونحن فى الطريق الخلوى وفى عينه دعاء لى ولك تخالطه حسرة على ماض ما كنا نعرفه .. وشيئا فشيئا تبادلنا التحية وتبادلنا المودة . وفى يوم ربيعى دافىء جلسنا بجوار كوخه لنستريح قليلا وقدم لنا يوم ذاك فنجالين من القهوة وقدمت له سيجارة فاعتذر وأشعل الغليون . واكتشفنا معا يومئذ بغير عناء أن هذا المظهر الطيب يخفى وراءه نفسا مغرورة . وأنه كان فى عز ، فقد كان صاحب مزرعة فى نفس البقعة التى يقع فيها كوخه . وأنها ضاعت منذ عشرين عاما . وأنه كان يأمل أن تعود . وفى كل صباح كان يلقى نظرة على المساحة الشاسعة التى لم يعد يسيطر عليها ويسأل الغيب عن اليوم الذى ستعود إليه ، وكان ذلك محالا

وإن لم يتبين ذلك . بدليل أن هذه المزرعة كانت ملك ناس قبله لايمتون إليه بصلة . ثم لبثت تحت يده مدة ولابد أن يتغير الحال . وشاخ الفلاح وتغيرالزمن لكنه كان يغالط نفسه .

وتذكرين ياكاترين ذلك الجرار البخارى الذى أكله الصدأ وأصبح « خردة » . كان رابضا أيضا على مقربة من الكوخ كأنه يرقب عودة الماضى . وسألنا الفلاح العجوز عن سر هذا المرصد حين رأيناه ينظر إليه بين وهلة ووهلة ، فأخبرنا أنه من مخلفات أيام المجد أيام كان يملك إصطبلات وجرارات ومركبة وبقرا كثيرا .

طيب .. ولماذا لم تستغن عن هذه الآلة أيها العم ؟ فلم يجب .. لكن عينيه قالتا وكفيه صرحتا بأنه كان فى انتظارشيء يرد الحركة إلى الجرارالبخارى ويزيح عنه الصدأ . وأخيرا وبمرور الزمن غاصت عجلاته فى الطين فأكله المطر والثلج والشمس والصقيع .

لم أحك هذه القصة لأحد ياكاترين لكنها كانت تراود خيالى فى كل لحظة منذ اشتركت فى معركة الهجوم على مصر .. وزارنى الفلاح فى المنام في غرفتى التى تطل على البحر وكان يشد وراءه جراره البخارى . عجوز كهل يموت من الإجهاد يمشى بشيء تلفت عجلاته ورعاه الصدأ فى كل مطرح .

ورسمت علامة الصليب حين استيقظت من النوم وتلفت فإذا « هاردى » جالس يبكى . لم يكن قد مات بعد . فلما سألته عن السبب أجابنى بأنه الشخص الوحيد الذى بقى سليما فى أسرته تلك التى حولتها الحرب إلى موتى ومشوهين .

علي كل حال لقد توقف إطلاق النار وهأنذا لم أمت . على أن فرصة الموت لاتزال سانحة فنحن واقفون على قدم واحدة فقط فى مدينة ملأتها

الشياطين . أحس صداعا ولا أستطيع أن أكتب . أقبلك ياكاترين .

٩ نوفمبر ...

هل تريدين أن أفسر لك شيئا من حوادث اليوم ؟

لماذا يحتفظ أنطونى الفلاح بالجرار البخارى بعد أن هاجمته عوامل الطبيعة ؟

هنالك أشياء لاتقهر. والخذلان نصيب من يحاول قهرها . حسن . ولماذا يقيم الفلاح أنطونى على مقربة من أرضه التى اشتراها الأقرباء . هل إقامة الأم على مقربة من لحد ابنها يعيد الحياة إلى الجثة الخامدة ؟. لا .

أما الحجرة التى أرقد فيها أنا وهاردى فقد صارت لى وحدى . فيها سريران ومنضدة للزينة وفراش يدل على الرخاء . لم يفر أصحابها ولكنهم أخرجوا منها بالقوة . وقد نقل « هاردى » قبل قتله بعض تحف وطرف كانت فى المسكن ووضعها فى حقيبته ليأخذها يوم العودة وهاهو ذا قد ترك كل شىء .

كم كنت أحب أن أواصل دراستى للاهوت فى الجامعة . أى شيطان زحزح خطاى عن هذا الطريق ؟ أنا أحس أن شيئا ضخما ينقصنا كمجموع . هذا الشىءهو « الطاقة » .. ليست الذرية ولا الهيدروجينية . إنها الطاقة الروحية . إن أكبر قوة على وجه الأرض لاتساندها « الروح » لاتكون إلا شيئا أعمى أصم غاشما مدمرا كالبركان لا يعمل لحساب أحد . يدمر فحسب . وانظرى ياعزيزى كم من سنوات يحتاجها الموقف لتنمو الأعشاب الخضراء من جديد على فوهة البركان بعد أن يخمد ؟ ياإلهى .. كم هذا مريع !.

لقد بكى « هاردى » خشية الموت . مات . وقتله فتى أسمربشرته فى لون الغرين تماما ، رأيته بعينى وهو يطلق عليه الرصاص من خلف أحد المتاريس التى أقيمت فى الشارع الرئيسى فى المدينة . وتلوى « هاردى » وطلب ماء وصار يصيح فى خوف عجيب : جون ..جون .. سأموت ياجون . سأموت ياجون .

وبعد أن مات « هاردى » سألت نفسى عما حدث ؟ هل تغيرت الدنيا ؟ لا . ولن تتغير حتى ولو مت أنا أيضا. الدنيا تتغيرفى حالة واحدة هى .. إذا غبت أنت عنها ياكاترين . هل تسمحين لى أن أقبلك ؟.

١٠ نوفمبر ...

ماذا لوكنت اليوم صريحا .. ؟!

إذا كان السبب (واضحا) كان السبب قويا جدا . وسبب حمل السلاح عند المصريين أوضح من النهار.

تصورى ياعزيزتى أننا طرقنا كوخ عم أنطونى الفلاح صاحب الجرار البخارى ، وقلنا له :

ـ افتح يارجل .

ـ لا. لن أفتح .

ـ إذا لم تفتح كسرنا الباب ودخلنا عليك بالقوة .

ـ إن استطعت شيئا فافعله أيها المغرور. ستمر على جثتى العجوز .

وبعدئذ حاولنا أن نفتح بابه عنوة ؛ فماذا يفعل صاحب الكوخ ؟ أنت تعرفين الجواب من غيرشك . تعرفينه . غير أن الجواب فى بورسعيد كان أشنع مما تعرفين .

ليتنى واصلت دراسة اللاهوت .. لقد اشتركت فى حرب سببها غير واضح فى ذهنى وأخشى أن أقول إنها غير عادلة .أما عند المصريين فقد كانت مقدسة.

إن فقراء الهنود الذين يرقدون على وسادة من المسامير لاتنفذ مساميرها فى أجسامهم لأن إيمانهم بما فعلوا أحال البشرة إلى طبقة من المعدن لاينفذ منها شئ .

فانظرى كيف يصنع الإيمان العجائب ؟ والحقد لاينصر قضية . وإلغاء المسافات فى عصر السرعة جعل سكان القطب قريبين جدا من سكان الاستواء والقرب يولد التفاهم . ولما ألغيت المسافات تقاربت الدول ووجدت لزاما عليها أن تعيش فى حسن الجوار.

لو رأيت « هاردى » وهو يبكى لأهديت إليه أصبعا من أحمر الشفاه ، كان يبكى من الجزع وكنت أبكى من الإشفاق عليه . وكان بين التحف التى نقلها إلى حقيبته لوحة صغيرة . كتب عليها بخط أثرى لم نستطع قراءته .

قال هاردى : إنه كلام من كتابهم المقدس . وخمنت أنا : إنها تعويذة فرعونية . وقال ضابط ثالث : إن لنبيهم كلاما عظيما فربما كان هذا كلامه . فقال هاردى : كقول المسيح : « وعلى الأرض السلام » . ثم ضحك فقصفت فى الأفق طلقات نارية ، كان الفدائيون من المصريين مصرون على إهدائها إلينا ، وبعد موت هاردى جاء أحد الزملاء فبحث عنها بإلحاح حتى وجدها فنقلها إلى متاعه . ثم ذاع بيننا أن أحد الزملاء يعرف العربية وأن باستطاعته أن يحل اللغز ، وأخيرا عثرنا عليه وقدمنا إليه اللوحة المعدنية الصغيرة فقرأها وترجم مافيها .. « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » .. إنها من كتابهم المقدس . وقال لنا زميلنا إن معناها أنهم قوم (قدريون) فاعترضت عليه قائلا له :

ـ أفضل الناس هو من يعرف فضل أعدائه . إنك إذا عرفت ميزات



عدوك أتحت لنفسك فرصة التغلب عليه . أما إذا نظرت إلى عيوبه فحسب فستنمو مميزاته وأنت غافل عنه وتسبق السلحفاة الأرنب .

إنهم ليسوا (قدريين) ، إنهم يجدون مايؤمنون به . وهذا هوالفرق بين الوجود والعدم .

وهززت له رأسى وأشرت إلى المدينة الصامدة قائلا : هذا هوالدليل .

وهز بعضهم كتفه ومشى يصفر . وأطل من النافذة فى الظلام المريع على البر الذى كأنه يسب ويلعن . أما أنا فقد قلت فى نفسى :

ـــ تعصب . وعدت أسأل روحى : لماذا عدلت عن دراسة اللاهوت ؟ ياإلهى . أكاد أموت من العطش إلى الحب .. الحب . الذى قرأنا منه فصله الأول فقط ياكاترين .. هل تذكرينني ياحبيبتى ؟.

١١ نوفمبر ...

إن الشاب الأسمر صاحب البشرة الفرينية يزورنى فى المنام . ما له بشوشا على الرغم من أن فى يدة بندقية .. أهو يسخر منى ؟ هل جاء يبحث عن « هاردى » مرة أخرى ؟

سمعتهم يقولون : إننا سنرحل . وسنعود إليكم قبل عيد الميلاد .

« وعلى الأرض السلام » ياكاترين . العادل لايكره أحدا . ما الذى يضرنى إذا غيرجارى نظام بيته فجعل حجرة المائدة مكان حجرةالضيوف وجعل حجرة الضيوف مكان حجرة المائدة ؟ لاشيء . غير أن الحقد لا ينصر قضية . القضايا التى تنتصر هى ذات الأسباب الواضحة . .

سأحمل إلى أم « هاردى » نصف رسالة من ابنها كان يكتبها ودموعه

تسيل ولم يكملها لأن الأسمر المصرى ضربه من خلف المتاريس . هى على كل حال تذكار من ابنها فيها بعض الشوق والحب والقلق . على أن فى بورسعيد أمهات كثيرات فقدن أبناءهن ، وأزواجهن كذلك . دخاننا سود الحيطان وجعلنا من بعض المبانى ميادين كريهة لكننا لا زلنا واقفين على رجل واحدة فى مدينة تملؤها الشياطين . آه ياكاترين .. ياإلهى .. لماذا انقطعت عن دراسة اللاهوت ؟ كم أنا متعطش إلى الحب . إن الحقد لا ينصر قضية . والقضايا التى تنتصر هى ذات الأسباب الواضحة . وقد عرف المصريون تماما لماذا يحملون السلاح .

كاترين . الأمل كبير جدا فى أن أعود ولو أن فرصة الموت سانحة فى كل لحظة لكن .. سأخرج من مصر وأقسم أننى لن أضع رجلى فيها حتى ولو كنت أنا وأنت فى شهر العسل . فى الشتاء القادم .

حلاوة ونار

وكل شيء حولها صامت على الرغم من أن الأشياء لم تفقد حركتها بعد ، والحارة لم تتخل عن الضجيج . والجو حار والنوافذ مفتوحة . وصوت بائع الخيار يختلط برنين صنجات بائع العرقسوس . أشياء ترطب القلب المحرور وتنزل المشترين إلى الأبواب و « الأسبتة » بالحبال من النوافذ .

لكن فى الشقة العليا من المنزل امرأة لا يرطب قلبها شيء . انفتحت عند قدميها فجوة مخيفة يملأ فراغها ظلام . جالسة فى إحدى الحجرات تنظم عقداً صغير الحبات انقطع منها صباح اليوم . ويحدث أن تضطرب أناملها فينفرط مانظمته فى الخيط .. وربما اغرورقت عيناها بالدموع فعجزت عن أن ترى الثقب .

وكان يحز فى نفسها أكثر من كل شيء خوفها من أن تذهب إلى النافذة حتى لا تقع عينها على بيت عند الناصية فيه شقة صغيرة نوافذها مفتوحة كالعين العمياء .. وادعى بائع العرقسوس فى ندائه أن ـ الخمير شفا للقلب ـ فعبرت على شفتها المشققة العطشى ابتسامة وضعت بعدها العقد على المنضدة ثم قامت إلى النافذة وأطلت على الحارة .

ثم استسلمت لضعفها حين وقع بصرها على الشقة البعيدة .. إن صاحبها لم يغب منذ زمن طويل ..

وبدأت تحسب الزمن .

متى كان الوداع ؟!

وأحست بالفجيعة حين وازنت بين قدر ماتحسه من قلق وشوق وظمأ ..

وقدر الأيام التى غابها عنها . إنها ثلاثة أيام .. ثلاثة لاتزيد .. لم تواته الفرصة بعد لأن يرسل إليها خطابا من المنصورة .. ومع ذلك كأنها نسيت ملامحه .

وبحثت عن ريقها فلم تجده . وكان فى العينين دمعة . ومع جفاف الظمأ والشوق أخذ صوت صاجات العرقسوس يتذبذب فى تموجات معدنية محتضنا صوت البائع الذى انزرع فى الحارة يؤكد ـ أن الخمير شفا القلب .

وبلعت ريقها فأحسته مرا . ثم عادت تسترجع ملامحه فلم تستطع .. صارت مطموسة . حدث لها هذا قبلا .. بعد أن غابت أمها فى ظلمة الموت ثمان وأربعين ساعة .. فأخذت بعدها تصرخ كالملسوعة تماما ولم يكن السبب إلا أنها فقدت ملامح وجهها وكأنها غابت عن البيت قرونا . وعادت مكانها وأخذت تعيد (لضم) العقد . وحباته ذات الألوان كأنه الزمن . ولكن .. هل ستستحيل أيامها بعد غيابه إلى عقد أسود تنظمه لتعلقه فى جيدها الطويل ..

ووضعت يدها على عنقها فى الجانب الأيسر حيث تحسست بقعة لاتزيد مساحتها على عقلة أصبع . فى هذه المساحة حلاوة وذكرى ونار. هناك ترك آخر قبلة من آلاف القبل التى تبادلاها إبان سنة تحابا فيها ، لكن لماذا تذكر هذه القبلة وحدها ؟ .. لماذا تذكر ـ فقط ـ أوائل الأشياء وأواخرها ويضيع الباقى فى الوسط إلاماندر ؟

وتنهدت .. وأطلت من الشباك ، ولم تدرك أن حبات العقد تتناثرت منها على الأرض وهى تحاول النهوض . وعلى النافذة المظلمة المفتوحة (الشيش) فى فوضى وقعت عينها الباكية ، وهتفت كأنها تعترف :

ـ أحبه .. نعم .. أحبه ..

وألقت خلفها نظرة كأنها أحست إنسانا سيسمعها .من ؟ ربما زوجها.

إنها بلا أولاد . زوجة لهذا الرجل منذ عشر سنوات . وهى الآن فى الخامسة والعشرين ..

كانت الحارة شبه خالية ، حتى بائع الزبادى كان عائدا يحمل الفوارغ ويتنحنح ولاينادى بعد أن ـ جبر ـ كل ما معه .

وعلى باب البيت الذى كان يسكنه حبيبها ورقة بيضاء لم يستطع النور الضئيل المنبثق من البيوت أن يحجب لونها .. ـ للإيجار ـ وعادت فجلست . وأكبت على الأرض تجمع الحبات المبعثرة وتضعها فى كفها .. هكذا تبعثرت أيامها .

لقد تزوجت وهى بنت خمسة عشرعاما . لم تكن تدرى شيئا ما لاعن الحب ولا عن الجنس . ورأت فى عشرتها للرجل الذى اختير لها عملا لايخلو من التسلية . لم يكتب لهما النسل . لكنه أجهد نفسه فى إرضائها بكل شىء حتى الحلى الذهبية .. وهو تاجر أقمشة يلبسها من المنسوجات بواكير ماتخرجه المحلة ـ ولم يكن فى بيتها ماينقص . لكن الذى حدث أن قلبها حين اهتز اهتزازة الأرض الموات بعد المطر وجدت نفسها قد بلغت مع رجلها هذا درجة التشبع . فصارت كالظمآن الذى استعاض عن الماء بالعصير لأن الماء لم يكن موجودا . لكنه حين أحس طعم الماء الذى لاطعم له .. أدرك أن هذا هو الطبيعى !

***

ـ والليلة الأخيرة كانت قاسية ..

هتفت بهذا فى نفسها ثم رمت بالعقد الذى لم يتم تنظيمه فتبعثر نصف ما فى الخيط . وحملت رأسها على كفها وأخذت تتذكر .

التقى بها وهى عائدة من السوق وهو عائد من الديوان وأخبرها أنه منقول إلى المنصورة . وابتسمت فبرقت أسنانها الدقيقة الأطراف المبلولة بريق



. . . كان دائم الظمأ إليه . لكن قلب سحنته أكد لها أنه لا يمزح وأنه فى بحر ثلاثة أيام سيغيب نهائيا .

وسبقته فى المشى وظلت مقفلة نافذتها طول النهار . وكان هو كثير التطلع . وخيل إليه أنه اكتشف فيها فجأة امرأة فاجرة . حبها خداع وجبن وفرصة فهون على نفسه الأمر .

وعندما سكن الليل انفتح عليه الباب . كان الهلع يبدو على حركاتها كهلع المرأة حين يخطف منها طفل . وكانت الأخطار تحيط بهما لأن زوجها فى الخارج وربما عاد إلى بيتها فأفهمته أنها دبرت كل شىء . وعندما تتخطى أمانينا إلى قمم أعلى من التى كنا نتصورها تبدأ الشكوك والمخاوف فى الظهور . فخيل للشاب أنها تعبث به لتهيجة من مشاعره مايحمله علي أخذها معه أو على أى شىء آخر يخطر على بالها وحدها .

وظلت جالسة تحدثه وتبكى .. وتهمس فى حديثها كما كانت تسامره وتربت على خده وكتفه . وفى الليلة الثانية كانت عنده أشبه بالمصروع .. فى نصف يقظة أونصف غيبوبة . لو أعمل فى جسمها مشرطا لأجابته بأنة مكتومة .

وكانت آخر لياليها ..

أما آخر ما منحها فهى تلك القبلة التى تعرف مكانها من عنقها كما تعرف مكان العين أو القلب . وسألها قبلها سؤالا محرجا أودع فيه كل مايمكن من تضييق وتعذيب :

ـ ماذا يمكن أن أعمل من أجلك ؟! هل تريدين أن تتركيه ؟!

ومن هنات نبراته وإرخاء جفونه فهمت أن بعض الرجال يجنون الربح ويهربون من الخسارة فى معاملتهم للزوجات الخائنات . غير أن ذلك لن ينزله من قمة حبها فيه لأنها تعرف كيف أحبته ..

***

كانت خطا الليل قد تقدمت كثيرا . والحر قد خفت وطأته ، ونسيم فيه رائحة التراب يعبر من النوافذ التى باتت مفتوحة . والمرأة غير جالسة ولاراقدة .. منكفئة على المنضدة كما ينام على درج المدرسة تلميذ صغير .. وزوجها بائت فى الخارج ، والعقد مفروط الحبات بائت عند ذراعيها بلا ـ لضم ـ ومصباح مشعل فى الصالة يتطوح حبله مع النسيم يلقى على الحجرة ضوءا .

وكانت أحلامها تعيد عليها تاريخ ميلاد العلاقة .. أيام كان يتبعها فى كل طريق ويسهر فى النافذة حتى تنام .

ثم جمد الدم فى ذراعيها من طول انكفائها عليهما فاستيقظت وتلفتت تبحث عن مكانها من العالم وأقفلت النوافذ وذهبت إلى الفراش .

***

لم يأت إليها خطاب بعد ما انقضت عشرة أيام ، كأنما كل شىء قد نسى ، وكانت النوافذ فى شقته الصغيرة مفتوحة دائما يعبث الهواء ببعض مصاريعها فى الليل فتزقزق كأنه لم يزل فيها . وفى إحدى الليالى لمع فيها النور. كانت غائبة طول النهار عن بيتها فلم تر السكان الجدد الذين شغلوا مكانه . امرأة بدينة وبنت هيفاء كانوا يغدون ويروحون طول الليل ليرتبوا أثاث البيت . وخيل إليها أنهم غصبوا منها شيئا فكرهتهم .

أدركت كره الأحياء للورثة من غير أبنائهم ..

وأخيرا وصلتها الرسالة عن طريق إحدى قريباتها فى غير الحى . وودت بعد قراءتها لو أنه أهملها . خيل إليها أنها بدأت تستسيغ المصيبة . وأنها كالسجين الذى كره سماع الوعد بالإفراج لأنه يقطع عليه حبل استسلامه . وأحست حرارة شفتيه ودفء لياليه . ونام زوجها بعد أن طلب منها الحنان فأخفق لأنه لم يكن عندها حنان . وتعللت هى ليلتئذ بالمرض .

بالعلة الخالدة عند المحبات .

ولم تكن رسالته إلا تذكيرا بالذى فات .. وبعث أمل ضعيف فى عودته إلى القاهرة ، ثم اعترض . حتى لو عاد إلى القاهرة فهل من الممكن أن تعد الحياة إلى ماكانت عليه . حين كانت وجوههم تلتقى فى الصباح وفى المساء ولايشبعون كمن يعيشون على النهر ويشكون الظمأ ؟!

***

ـ لماذا لا أذهب فأراه وأعود ؟ .. إن الفرصة مواتية .. كان الزوج مسافرا لإحدى صنقاته . والشوق يقلق قلبها الضعيف . وسهرت طول ليلتها تقلب الأمر حتى إذا ماطلع النهاركانت قد اقتنعت بأفكارها .

وتعثرت وهى خارجة من المسكن . وبكت حين ألقت على بابها نظرة بعد إغلاقه ، ربما لأنها تصورت أنه من الجائز ألاتعود .. لماذا ؟ المفاجأة تأتى من أحد الرجلين .. يستبقيها هذا أو يطردها ذاك !!.

وبكت بغزارة . والمرأة تذرف أسخن دمعها وأغزره حين تشعر أنها مغلوبة ، أوحين يحيرها قلبها .

ووقفت تسأل عن قطار المنصورة . وعلى الرصيف كثير كانوا يحملقون فيها . هكذا ظنت .

ـ بعد خمس دقائق سيقوم القطار ياسيدتى .

ـ متشكرة .

وهبط رجل من قطار قادم يمشى بخطوات كخطوات زوجها فاختبأت فى ظل حمال سمين . ثم تخيلت الحوار الذى سيدور بينهما ، ثم ظهر أنه شبيه له .

ـ ماذ يحدث لو استبقاها من هناك أو طردها من هنا ؟!

إننا نأسف على التافه من ذكرياتنا إذا بدأنا ندوسه كما نأسى على

سقط المتاع حين تحمله عربة النقل بعد أن نبيعه .

ليته لم يرسل لى خطابا .. لقد نغصنى كما ينغص السجين بوعد الإفراج ..

وتنهدت . ثم تلفتت حولها :

ــ أراه وأرجع . مرة أخرى .. ولن أعاودها .. ثم سألت نفسها :

ــ إن مجرد إرسال خطاب أتلفنى فكيف إذن بذهابى إليه .

وعادت تسأل أحد الحمالين عن موعد قيام القطار .

ــ أى قطار ياسيدتى ؟

ــ المنصورة .

ــ المنصورة ؟! .. ألاترين ؟!

وأشار بأصبعه إلى العربة الأخيرة التى كانت تهتز فى سيرها كأنها كفل حصان لأن القطار كان قد تحرك منذ دقيقة .

ونظرت إلى بلاط الرصيف ذى الرقع المقسمة على هيئة شطرنج ثم وقع بصرها على قدميها فألقت على نفسها سؤالا :

ــ إلى أين ستقودنى قدماى هاتان ؟

وعندما جن الظلام كانت جالسة تنظم العقد وظهرها نحو الشقة التى يسكنها الغرباء .

عزيز

أكد أهل القرية ـ يوم مات العمدة ـ أن أحدا من أبنائه لم يحزن عليه . كانوا ثلاثة ذكور غير البنات . ركبت كل إنسان شهوة شخصية . وكانوا ينقمون على أبيهم ويعتبرونه بالنسبة إلى ثروته التى سيرثونها من بعده ـ حارسا ثقيل الظل خشن الكف يقظ العين يجب أن يتزحزح شيئا ما عن باب هذا الكنز .

سأعود للموضوع فلا أريد أن أنسى .

أكد أهل القرية أن أحدا من أبنائه لم يحزن عليه وكانت دموع بعضهم زائفة .. وبعضهم لم يبك قط لأن البكاء لم يخلق إلا للنساء .

ولم يحزن على العمدة إلا المخلوق المسمى « عزيز » .

كانا صديقين حميمين هو والعمدة حتى تمنى كثير من المحرومين أن ينال من عناية العمدة ما يناله « عزيز » ، وتمنى كثير من المظلومين أن يلقوا من عدل العمدة مايلقاه « عزيز » .

وهو مقيم عنده لا يرحل ، له خادم خصوصى وكلب ينبح عند بابه فى الليل . وإذا مرض عاده الطبيب ولم يكن ينقص شىء إلا أن ينوب « عزيز » عن العمدة فى حكم القرية إذا غاب بصرف النظر عن شيخ البلد الذى فى المركز .

ولم يكن « عزيز » هذا إلا حصانا .

كان فارها ضامر البطن عظيم الكفل مصقولة قصير الشعر ناعم الملمس . قامت بينه وبين العمدة علاقة روحية لم يكن يعرف سرها .. وكان ينسج حوله الأساطير وربما كان من العدل أن أقول الفأل الحسن .

اشتراه يوم الثلاثاء من إحدى أسواق المنوفية ولم يركبه وقضت لجنة الشياخات فى المديرية يوم الخميس التالى بتعيينه عمدة للقرية . ورجع خصومه وأتباع خصومه في جلابيب الذل على مطايا الخيبة ، أما هو فقد أبرق لمن هناك فانتظروه على محطة السكة الحديد بالجموع والطبل وهذا الحصان الذى سماه « عزيز » منذ ذلك اليوم .

وماركبه إلى « محكمة » إلا كسب القعنية ..

ولا إلى باب مغلق إلا انفتح على مصراعيه ..

ولا أوقعه على الأرض مرة فأصابه سوء ..

ولا ركبته مطلقة وذهبت به إلى مكان إلا وردها زوجها قبل أن يغيب هلال الشهر .

ذلك لأنه مبارك . دابة تحمل علامة اليمن على جبينها فى صورة شية بيضاء على شكل قوس يوشك أن يكون هلالا .

وكان لعزيز إصطبل نموذجى يقع عند أطراف الحديقة وسائس كهل خبير سقطت أسنانه وهو فى خدمة الخيل . وكانت مكانة هذا السائس بين الأنفار والفلاحين متعادلة مع مكانة « عزيز » بين الناس والبهائم .

ولم ير أهل القرية « عزيز » إلا بعد وفاة العمدة بأسبوع على الأقل ، كان يقوده واحد من الفلاحين العاديين غير المتخصصين فى رعاية الخيل ؛ لأن السائس العجوز خير بعد وفاة العمدة بين الرحيل وبين أن يكون « نفرا » عاديا . فاختار أن يضرب الأرض باحثا عن مزرعة جديدة يكون أصحابها من مقدرى « الفن » .

هكذا قدر على « عزيز » أن يفقد عزيزين فى أسبوع واحد : الفارس والسائس . وكان منظره حزينا . أشبه بالبناء قد سقط من أعلاه مدماك أو مدماكان بغير انتظام . على ركبتيه وكفله شيء من القذارة وشعر معرفته

أشبه برأس الحسناء التى تعودت على الزيوت والأدهان ثم حكم الزمن فلم تستطع غسله حتى بالماء ! ولم يكن كثير الصهيل ، والصهيل بالنسبة إلى الخيل كالدندنة أو الغناء أو ضجيج المرح بالنسبة لبنى آدم . وكان يصهل فى بعض الأحيان كأنه يتنهد .. الدنيا كانت مشغولة عنه .السائس رحل وتحت إبطه صرة الملابس ، والورثة يتطاحنون على قسمة التركة وكل منهم يحلم بسيارة جديدة .

وفى ضحى يوم من الشهر التالى كان هناك فلاح غريب على ظهر فرس جاء من مكان بعيد وقابله بعض المقيمين فى عزبة العمدة وسألوه عن طلبه . ونادى أحد الصبيان عم عبد الصمد السائس الجديد لعزيز . وتكلم الفلاح والسائس ثم استدارالسائس نحو الإصطبل وعلى ثغره ابتسامة . ثم عاد يسحب « عزيزا » ووقف الفلاحون يرقبون المنظر المسلى بفضول لايخلو من الغمزات والبسمات وربما القهقهة ، قال الفلاح :

ـ ماله أصبح هكذا ؟ أهذا « عزيز » الشهير الذى ظل الناس حريصين على اقتناء سلالته عدة سنوات ؟

ثم قهقه فى سخرية . فضحك السائس من جديد .

ووقفت الفرس تنتظر وطباع حيوانية تبدو فى عينيها السوداوين وقلق ـ تهذب فى طبيعة الإنسان ـ شمل كل حركاتها ، وبدأت عملية التحريش لمنح « عزيز » مخلوقا من سلالته الكريمة كما كان يمنح ، ولكنه أطرق وصهل بحزن ونبش الأرض بحافره . وضج الصبيان بالضحك على العز الذى ولى فى غضون شهرين فجرى الفلاح بالحصان شوطا ثم عاد .. لكن بلا جدوى . ومنذ ذلك التاريخ هوت شهرة عزيز من ناحية السلالة . وفرغ الوارثون من التطاحن وقسمت المزرعة وامتلأت أفواه بعض الناس بالشماتة :

ـ مال تجيبه الرياح تاخده الزوابع .



ـ ياما نهب يا ما ظلم .

ـ فتلك بيوتهم خاوية .

ـ وفين « عزيز » ماعزيز إلا هان .

وكان « عزيز » فى هذه اللحظة يخترق شارع داير الناحية فى القرية وهو يجر « فيتون » ركبه أحد أبناء العمدة والسوط يفرقع على كفل الحصان لمناسبة وغير مناسبة. ربما لمجرد اللذة التى تحدث لسماع الفرقعة كما يفعل الأطفال بـ « بمب » العيد .

***

ثم دخلت هذه الأشياء فى غمار النسيان بعد ثلاثة أعوام على الأقل . وركب صاحب « الفيتون » سيارة حديثة قبل أن تغيب عنه شمس العز ويعلن الإفلاس .

وبيع « عزيز » ونسى الناس اسمه . إنهم ينسون الإنسان فما بالنا بالحيوان !.

ولكن الضحا ارتفع مرة أخرى .

وكانت الشمس حنونا لذيذة فى يوم من أيام شهر مارس ، وعلى كوبرى الجيزة الطويل كان رجل يعبر النهر متجها إلى القاهرة يمشى متعبا متخاذلا وهو يقضم شطيرة وينظر إلى الطريق .

وتوقف الرجل عن المضغ فجأة وجعل يحملق إلى الأمام ثم لم يملك نفسه فهتف وهو يعبر الكوبرى إلى الناحية الأخرى :

ـ عزيز .. عزيز .. عزيز ..

وتوقفت العربة فجأة . ونظر السائق إلى الرجل الذى هتف مرتقبا وصوله ولما وصل إلى هناك مد يده الخالية من الخبز وتحسس رأس عزيز . إنه الحصان الكريم الذى كان فى المزرعة .. لاتزال الغرة الهلالية مضيئة على

جبينه . على الرغم من أنه هزل . وكان مشدودا إلى عربة كبيرة من عربات الخبز متجهة إلى الجيزة ، وعرف الحصان هذه اليد التى تحسست عنقه فصهل وعاوده المرح الذى كان يلقى به أناث الخيل فى المزرعة قديما أيام كان كريم السلالة . كما يذكر الشيخ ليلة غرام . وكان سائق عربة الخبز مذهولا .

فسأل الرجل :

ـ على من كنت تنادى . إنك هتفت باسمى .. هل تعرفنى ؟ .

فرفع الرجل يده عن الحصان فى شبه اعتذار وضحك فى ارتباك . فسأله السائق :

ـ وما حكايتك ؟

فرد فى صوت متهدج :

ـ كنا صديقين .. كان عزيزا وكنت سائسه لكن انظر . هو يجر عربة خبز ، وأنا أقضم « سندوتش » ، وانظر أين التقينا .. و .

ولم يتركه يكمل فلسع « عزيزا » بالسوط ودرجت العربة على الكوبرى بصوت كأنه زحف القدر . وتركوا السائس يسأل وهو ينظر إلى الماء المتدفق نحو الشمال من الكوبرى :

ـ هل القضاء والقدر يتحكم فى الحيوان كما يتحكم فى الإنسان ؟

ثم تنهد ..

النفس الكبيرة

لم نكن نعرف موطنه على وجه التحديد .

قالوا إنه من الصعيد . وقالوا إنه من عرب الواحات . ولكن الذى كان غيرمشكوك فيه هو .. أنه ابن عز . عليه من النعمة أثار واضحة وعليه من حسن الرعاية في الطفولة والعناية فى الشباب علامات كثيرة لاتخفى على العين .

ـ هذا هو الرجل الذى هبط قريتنا فى خريف سنة مضى عليها عشر سنوات ، تابعا لأحد تجار القطن الكبار . واستأثرت صباحة وجهه وحلاوة لسانه بقلوب الفلاحين حتى لم يبخلوا عليه بطلب ـ ومزايا الغريب أقرب إلى الظهور وأقوى عليه من مزايا المقيم فى العادة ـ حتى إذا ماانتهى موسم القطن فى ذلك العام وخرج من القرية ليعود إليها فى العام المقبل . واستقبله الفلاحون بفرح كبير لأن فى وجهه علامتين محبوبتين هما الصباحة ونقود الموسم .

وفى هذه المرة سكن فى إحدى الدور . واختار بواسطة أهل القرية امرأة عجوزا حسنة السير لتقوم على خدمته . ثم انتهى موسم القطن فلم يرحل . وكانت هذه الإقامة الموقوتة بداية لإقامة طويلة استغرقت العمر كله حتى نسى الذين عاصروا هبوطه إلى هذا الوطن الجديد أنه غريب وافد .

وكنا نطلق عليه اسم « عزيز أفندى » فقط لا زيادة ولا نقص . وكان فى هذين اللفظين دلالة على شخصه تغنى عن كل تعريف فلم يكن فى القرية سواه هو والصراف ، وحتى الصراف لم يكن يحمل لقب أفندى فى تلك الأيام .

واشترى عزيز أفندى بضعة أفدنة فأصبح يتمتع بحق المواطن ، كما

اشترى الدار التى كان ساكنا فيها . وعلى الرغم من أنه كان فى الخمسين من عمره وأذاع عن نفسه أن له أولادا فى بلده من زوجته التى ماتت ودفنت فى ثراها . على الرغم من ذلك فإنه أشاع رغبته فى أن يتزوج إحدى نساء القرية ، وقد فعل .

وأصبح عزيز أفندى وكأنه مستشار الحضارة فى هذه القرية الضائعة عند حدود الصحراء . هو الشخص الذى يقرأ الصحف للعمدة الجاهل ويعلق له على الأنباء ويحدث الناس فى المجالس عن أعجب ماشاهده فى بلاد مصر التى مر بها . وكذلك عن بلاد الشام التى سافر إليها مرة مع تاجر القطن الكبير.

وأصبح مستشار الفلاحين فى كل الشئون الحيوية كتعليم الأولاد وتجهيز البنات والأطباء المختصين فى معالجة المرضى .

ولم ينجب عزيز من المرأة التى تزوجها فى القرية ولم يستجب لمشورة الأعيان ونصيحتهم حين ذكروه بأنه هو الذى يعلمهم وأن الله الذى خلق الداء قد خلق له الدواء أيضا ، فلماذا لا يعرض زوجته على أحد المختصين كما كان يقول لهم دائما ؟ لكنه لم يستمع لنصيحة أحد ولم يهتم أيضا لاحتجاج زوجته . ومضت الحياة بهما وهما وحيدان فى الدار حتى ألفا الوحدة ورضيا بالوضع الراهن . وقال عزيز أفندى لزوجته ذات مساء : « لاداعى لقلقك من هذا الأمر . فهأنذا قد أصبحت شيخا وإذا جاز لنا أن نزرع أشجارا لانعيش حتى نأكل ثمارها ، فإنه لايجوز لنا أن نزرع أطفالا لانعيش حتى نربيهم .. » ثم ضحك فى عدم اكتراث فبدا مقدم فمه وقد خلا من الأسنان .

ومعنى ذلك أن دار عزيز أفندى كانت تهدأ تماما بعد غروب الشمس لأنها كانت خالية من الأطفال . يرقد كل شىء فيها ويسكن بعد أن يسكن

الدجاج والوز خصوصا فى الليالى التى يسهر فيها رب البيت فى الخارج وتضرب الوحدة أطنابها على الزوجة الوحيدة فإذا ما أحست بالتذمر ذكرت شيئين فهدأت نارها . ذكرت أن لها أولادا من رجل مات عنها وأن له ـ كما يقول ـ أولادا فى بلده من زوجة قديمة له ماتت هناك ودفنت فى ثراها .

***

وبعد بضع سنوات من زواجه فقد زوجته الثانية ..

كانت ليلة شاتية عاصفة الريح ، شن فصل الشتاء فيها على قرى الوجه البحرى غارة شعواء طويلة الأمد . وفى إحدى ليالى هذا الفصل صعدت الزوجة وفى يدها مصباح فى فانوس ـ لقضاء بعض شئونها فى الطبقة العليا من الدار . وكان القضاء لها بالمرصاد فى هذه الليلة الدامعة إذ زلت قدمها وهى نازلة فهوت فى ساحة الدار .

ولم يعرف عزيز أفندى حقيقة الأمر حين سمع ـ من على بعد ـ سقوط جسم ثقيل . لكن إلحاح الكلب فى النباح أجبره على الخروج من الحجرة الشتوية فى الطبقة الأرضية من المسكن . وهناك .. ألفى زوجته ملقاة فى الوحل فاقدة الوعى والمصباح مشتعل تأكله النار. وبعض الديوك تطل من بين قضبان الجريد فى القفص كأنها تستطلع الخبر. وكانت هذه بداية النهاية بالنسبة للزوجة فقد رحلت بعدها بعشرة أيام .. ولم ترجع .

وبدأت الشيخوخة تخيم فى وجوم وإصرار على عزيز أفندى .. وعلى كل ما حوله بعد أن خلا عليه المكان أصبح يرى كل شىء « عجوزا » . حتى الأوانى التى كان يستعملها هو وزوجته خيل إليه أنها شاخت ، وراودته نفسه أن يتزوج لكنه عاد فنكل حين أوحت إليه نفسه أن الأيام الباقية له على الأرض لاتستحق العناء . وأخذ يغيب عن مجتمعات القرية .. وأخذ الناس يزورونه ثم خففوا من زيارتهم له .

وقرر عزيز أفندى أن يتسلى فطلب من أصدقائه الذين أرسلوا أبناءهم إلى المدارس ـ بعد أن تطورت الأيام ـ أن يأتوا إليه كل مساء ليساعدهم فيما عسى أن يكون غامضا عليهم فى الحساب والإملاء . فأصبحت الحجرة الأولى التى تلى باب الدار محط رحال الصغار من الصبيان وتحت إبطهم الكراسات والكتب .. وقد يسمع المارة فيها ضجيجا .

وألف الرجل سلواه الجديدة . وكان يشعر كأن كل هؤلاء أبناء له كانوا غائبين ثم عادوا . وفرض أن الزمان أحوجه .. أفلا يكون فى كل هؤلاء ذخيرة إذا ما أحسوا أنه محتاج ؟

كان يشعر فى الليالى التى تطوع فيها لتعليم الصبيان بلذة من يحارب عدوا وينتصر . أو يزرع أرضا فتخضر . أو يودع مالا فى مصرف إلى أجل بعيد . أو يعمر بقعة فى الصحراء ، أو يشفى علة مريض .. أو على الأقل بلذة من لايحس مرور الزمن .

وأخيرا ..

رأى أهل القرية أن حال عزيز أفندى أصابها تبدل جديد فباع جزءا كبيرا من بضعة الأفدنة التى يملكها فى القرية . وحال احترامهم للرجل بينهم وبين أن يسألوه عن السبب ، لكن بعض الألسنة أشاعت أنه كان مدينا لتاجر القطن بمبلغ من المال .. وأذاع بعضهم أنه ينوى الرحيل إلى موطنه الأصلى لأن عيشة الوحدة والملل والشيخوخة لاداعى لها بالنسبة إلى رجل مثله .

ولما لم يرحل عزيز أفندى بدأوا يقولون إنه هارب من ثأر وبدأ ناس آخرون يقولون : بل ثبت أنه مدين .

كانوا مشغولين بشأنه ـ على طريقتهم ـ وكان هو مشغولا بشئونهم ـ على طريقته . يقدم لهم من الخير ما يطيق ويعلم أولادهم كما يقدر . كان كالنور لا يستطيع إلاأن ينبثق والعطر الذى لا يستطيع إلا أن يفوح .

والأيام تمر لاتتوقف . والغرفة الخارجية من داره يدخلها صبيان ويخرج منها صبيـان ، بلا مقابل ، ولا ثمن . ويمر عليها شباب فينظرون إلى شباكها ويذكرون أنهم جلسوا هناك ذات يوم وأمسكوا القلم ويدهم مرتجفة على الرغم من ابتسامة الهدوء والطيبة التى كانت تشرق دائما على شفتى عزيز أفندى.

ثم أخذت الحال تتبدل أكثر وأكثر .

لأن عزيز أفندى قد أصابه مرض الربو فهولايستطيع أن يمشى كثيرا ولايشتغل . وكان المارون على باب بيته عندما يسكن الليل يسمعونه وهو يسعل وحده فيتنهدون ويمصمصون ويستغفرون الله ، ثم يسألونه عن السبب ثم يستغفرونه مرة أخرى .

وأخذت علامات الفاقة تظهر على طربوش عزيز أفندى . وعدد جلابيب العز يتناقص شيئا فشيئا . وأدرك القادرون من أهل القرية أن هذا الرجل جدير بأن يتلقى معونتهم . والمعونة بابها مفتوح ـ كما قال لهم ذات مساء حضرة العمدة ـ فهو يعلم أولادهم مجانا جيلا بعد جيل . فعلى الآباء القادرين أن يمدوا أيديهم بالمكافأة فيحولوا بينه وبين الفقر .

واحمر وجه الرجل وثارت كرامته وترقرقت فى عينيه الدموع فرآها الناس لأول مرة حين عرض عليه أحد الأعيان أجرة تعليم ابنه . واقسم عزيز أفندى ـ والله يعلم أنه غير صادق ـ أن الستر موجود وأن كل شىء على مايرام وأنه ما كان يتصور أن يظن الناس به أنه قد يصل إلى الحضيض ، ومنذ هذه الليلة لم يجرؤ أحد على أن يعرض عليه مالا من جديد .

لكن الفقر فصيح اللسان . كبطن الحامل تتحدث عن نفسها يوما بعد يوم حتى تمسى سرا مذاعا وحديثا مشاعا . وضيقت عليه الحاجة الخناق فى إحدى الليالى ولم يعد قادرا على تحملها . وكان فى الحجرة هو وأحد أبناء الموسرين يعلمه تطوعا واحتسابا وراوده خاطر هو أن يطلب أجرا على ما

يعطى . ماذا يعمل ما دامت الأمور قد آلت إلى هذا الوضع ؟

.. لكن .. إن اليد العليا تلاقى كثيرا من المشقة إذا حاولت أن تكون السفلى . الذى يعطى يعز عليه جدا أن يكون آخذا . واستجمع قواه ثم نطق أخيرا :

ـ قل لوالدك يافتحى إن عم عزيز يريد ثلاثة جنيهات قرضا يردها إليك عند الميسرة .

وجف ريقه . وقبل أن ينصرف الصبى هم « عزيز أفندى » أن يلغى طلبه ، لكنه سكت وبات ليلة حزينة . أحس أن رئتيه مطبقتان تماما حتى تكادا تكفان عن العمل . وتزاحمت عليه الرؤى والأحلام والذكريات . وكان بينها صورة امرأة تهبط سلما فى ليلة شاتية وفى يدها فانوس . ثم صورة هذه المرأة وهى ملقاة فى الوحل . وأشياء غامضة مهزوزة لم يستبنها عزيز أفندى .

وعند ارتفاع الضحى ـ وكان اليوم يوم جمعة ـ رجع الغلام إلى عزيز أفندى وفى كفه ثلاثة جنيهات . كان باب الدار الخارجى مغلقا بلا مزلاج فدفعه ودخل ونظر فى الغرفة الأولى فرأى صبيين جالسين بانتظار الرجل ، ولما سألهما قالا إنه لايزال نائما . وجلس ينتظر مع المنتظرين لكن الرجل غاب طويلا ، فدخل إليه فى حجرته ، كان فى فراشه ووجهه مغطى تماما فناداه فلم يجب . فذهب إليه ورفع الغطاء عن وجهه ليعطيه ماطلب حتى يرجع لأبيه فلا يستبطئه . لكن الغلام رأى على وجه النائم شيئا أنكره . وكانت كفه منقبضة الأصابع كأنها لاتريد أن تأخذ شيئا ، وعلى وجهه أمارات الموت .

ثمن المسئولية

كان ذلك منذ خمسة عشر عاما على التقريب . أيام كنت فى الثانية عشرة من عمرى . تلميذا صغيرا محدود التجارب أكبر إخوة يعولهم أب من صغار الموظفين تنحصر أحلام يقظته وأحلام نومه فى أن يجعلنا أسعد منه حالا فلا نشكو ضيق اليد ولاضيق الفكر ولاضيق المستقبل .

***

وفى صباح ذلك اليوم الذى سأقص عليك قصته خرج أبى مبكرا أكثر من العادة ليدرك قطار الصباح لأنه مسافر فى مأمورية مصلحية تستغرق طول النهار وقد تتطلب منه أن يبيت فى الخارج . وتناولت فطورى مع إخوتى وحمل كل منا كتبه فى طريقنا إلى المدارس ، لكننى قبل أن أخرج أمسكتنى أمى من يدى وانتحت بى ناحية وقالت لى وعيناها تبرقان باهتمام شديد :

ـ اسمع . خذ .. إنك لم تعد صغيرا .. يجب أن تتحمل المسئولية .. إن أعمال أبيك المصلحية تستغرق كل نشاطه فلا يجب أن نحمله متاعب جديدة .

وناولتنى مظروفا فيه مصروفاتى المدرسية التى كان يجب أن ندفعها منذ عشرين يوما على الأقل . وعاد الاهتمام يلمع فى عينيها وسألتنى بلهجة لاتخلو من الامتحان :

ـ هل تستطيع أن تخبرنى كيف تحمل هذا المبلغ حتى توصله للمدرسة . هيه .. أرنى ذكاءك . لكن لاداعى لكثرة الكلام فالوقت ضيق ويجب أن تذهب قبل دقة الجرس . اسمع . أحسن مكان تحمل فيه هذه النقود هو جيب بنطلونك الجانبى .. هنا .. هنا . هل تفهم ؟ لاتحتك بأحد وأنت فى الترام

ولاتخرج المبلغ من جيبك .

ثم دعت لى بالسلامة . وهبطت السلم وأنا أحس بالمسئولية للمرة الأولى فى حياتى . إنها شىء ثقيل .. خيل إلى أننى سألهث منه لهثانا أشد من لهثان صبى البقال الذى رأيته فى ذلك الصباح خارجا بشوال الأرز من باب المخزن فى طريقه إلى الدكان . وساءلت نفسى : هل يكون أبى فى مثل هذا القلق أول كل شهر وهو راجع من الوزارة فى جيبه مرتبه الذى يطعمنا منه ويعلمنا منه ويدفع لنا منه أجرة السكن ؟ ثم صرت أفكر بالنيابة عن والدى وأفرض مشاكل معينة قد تعترض طريق رزقه وأحاول حلها على قدر تفكيرى . وذلك لأننى حملت فى جيبى بعض مال أبى فحملت بعض مسئوليته .. ففرضت أن نشالا خفيف اليد استطاع أن يسرق مرتب أبى وهو عائد إلى البيت ؛ فماذا يكون الحال ؟ ماذا يكون الحال ؟ إننى أنا شخصيا رسول أبى إلى عملائه . رسوله إلى أم زينهم صاحبة البيت . أسلمها المبلغ وتسلمنى الوصل . ورسوله إلى الجزار والترزى والبقال .. وأعرف أيضا خبطة بائعة الزبدة على الباب .. تجىء كل شهر لتأخذ مبلغا معينا وأعرف أننا نتعامل بالطريقة التى كنت أكتب بها قديما فى لوح الإردواز وأنا طفل .. لابد من مسح القديم قبل الكتابة الجديدة فإذا توقف أبى عن الدفع أول أى شهرتوقفت كل هذه المعاملات . فمصمصت بشفتى وأحسست بمسئولية أبى . .

وكنت أصعد الترام فى هذه اللحظة فتحسست جيبى الذى يحتوى على المبلغ بحركة خائفة . وكان الوقت شتاء والدنيا برد . وبنطلونى قصير يكشف عن عظمة الركبة . ووجدت مكانا خاليا فى المركبة فجلست فيه فورا وأخذت أحملق فى الجالسين أمامى وجنبى بعين تحمل الشك ، ثم أخذ الترام يزدحم شيئا فشيئا وكانت مخاوفى متمشية تماما مع ازدحامه ، كنت أتخيل أن كل

فوج من الركاب يصعد إلى المركبة لايحتوى على أقل من عشرة لصوص ولكثرة حملقتى فى الناس انطبعت صورهم فى ذاكرتى تماما خصوصا تلك الريفية ذات الجلباب الطويل والكحل فى العينين . وكانت واقفة على مقربة منى تكاد يدها تمس كتفى . وكنت أتحسس النقود فى جيبى بين وهلة ووهلة بحركة تلقائية كأنها موضع ألم . وطال بنا الطريق . حتى إذا وقف الترام فى المحطة المطلوبة شققت طريقى فى الزحام ونزلت على الرصيف .

انشغلت أولا وقبل كل شيء ينفض الغبار على طربوشى الذى أسقطه عن رأسى أحد الركاب فأدركته قبل أن تدوسه الأقدام وساعدتنى الريفية ذات الجلباب الواسع والكحل فى العينين فسندتنى وعاونتنى وهتفت بالناس أن يفسحوا لى الطريق ، وانتفش زر الطربوش فوق القرص من أثر الوقعة فأخذت أعيد تنظيمه والدموع تكاد تطفر من عينى . ولماذا يسقط الطربوش فى هذه الأوقات الضيقة التى لا تتسع للمشكلات ؟ ! ثم حثثت خطاى سريعا لأدرك الجرس ولم أتحسس جيبى إلا وأنا عند باب المدرسة .

***

كنت أريد أن أبكى ولكن الدموع لم تسعفنى وإن كنت ظمآن إليها . لقد نشلت النقود من جيبى ولست أدرى كيف . وها هو ذا الجرس ترن دقاته فى أرجاء الحوش والتلاميذ يتجمعون على صلصلته من كل ركن وأنا واقف عند الباب كالصنم . حتى هتف بى البواب العجوز الحنون قائلا لى صح النوم .

وأيقنت أن أبى بطل من الأبطال . ولماذا لا يكون أبى بطلا ؟ إنه يحصل على المال ولايضيعه ، أما أنا فقد عجزت حتى عن نقله من مكان إلى مكان . وظللت طول اليوم المدرسى شاردا أستعيد الوجوه التى كانت حولى فى الترام وقت الصباح والرجل الذى أسقط طربوشى والمرأة التى

عاونتنى على التقاطه ونظرات أمى المحذرة وخروج أبى قبل الشمس لسفره فى المأمورية وإخوتى الكثيرين . ونزولهم على السلم معى فى ذلك اليوم بحركة لاتخلو من الضجيج .

ثم انتحيت ناحية من الحوش ووقفت أبكى بعيدا ثم عز على أننى أبكى وحدى ووددت فى قرارة نفسى أن يحس بى إنسان فيحول بينى وبين البكاء ولو بالملامة . ثم خيل إلى أن أبى يمسح دموعى وأن أمى تربت على وأنهم يقولون لى : كنا نريد أن نخلق منك رجلا يستطيع أن يحمل شيئا . فلماذا تبكى ؟ إنه ليس ذنبنا بل ذنبك أنت .

وتركت المدرسة عصر اليوم وكأننى خارج من المستشفى . وسرت أفكر كيف أواجه هذه المشكلة فى البيت . إن الخبر على من هناك سيثير متناقضات كثيرة ، سيضحك منى إخوتى وربما بكت أمى أما أبى فإنه سيدق كفا بكف ويلبس ثيابه ويخرج من البيت قائلا كعادته حين يضايقه أمر :

ــ قبل أن أموت . قبل أن أموت سأخرج !

وينصرف فى هدوء . ولكن .. سيبقى الإشكال كما هو ، ومن أين سيحصل أبى على سبعة جنيهات مرة أخرى ؟ لقد سمعته يقول فى شبه دعابة لأمى على مسمع منا :

ــ إننا نوفر مثل هذه المبالغ بطريقة (الحواة فى الأسواق) إنهم يخلقون من المنديل أرنبا ونحن نخلق من الهواء نقودا .

ثم يضحك فى مرح من انتصر ، وظفر ، وخطا نحو أمانيه خطوة جديدة . قلت فى نفسى :

ــ هذا حسن . وعندما يعلم أبى بما حدث لى فهل سيضحك ؟

وخيل إلى أن أهيم على وجهى فلا أذهب إلى البيت لكننى فضلت أخيرا أن أواجه الواقع .

***

وكانت أمي مشغولة بخياطة ملابس لإخوتي الصغار فلم تسألني عن شيء وكنت أحوم حولها آملا أن تسألني فأعترف وينتهي الأمر . كنت متوهما أن المشكلة ستنتهي بالنسبة إلي باعترافي . أو نصفها على الأقل . لكن مشغولية أمي حالت بيني وبين هذه الطمأنينة .

ودخل المساء فلم أعمل شيئا من واجباتي ووضع العشاء فلم آكل بشهية ، وكنت أحسد إخوتي الذين بدت على وجوههم دلائل الراحة والمرح . إنهم لم يضيعوا شيئا . إنهم سعداء .

وعاد أبي بعد أن هجع الصغار وكنت لاأزال ساهرا لاأدري ماذا أفعل . وخلع حذاءه الملوث بالوحل عند مدخل الشقة وخفت أمي لاستقباله وخرجت أنا كذلك . ثم جلس يتعشى . وأخذ يقص علينا ما لقيه في يومه وكيف فضل عناء العودة ليبيت بينها على الراحة من السفر مع المبيت بعيدا عنا . وكانت لهجته أشبه بالمفاخرة كأنه يباهي بوفائه . فرأيت فيه بطلا مرة أخرى . إنه لم يضيع شيئا يخصنا . أما أنا فماذا فعلت ؟ .

وفجأة بدا عليه الاهتمام وهو يتمطق فاستعددت لأجيب عن السؤال وخفق قلبي لكنه هتف في أسف وهو يضرب جبينه بكفه :

ـ أوه .. ماذا حدث للرجل ؟ لابد أنه قد بات في نكد . مسكين . لم يعطلني عنه إلا أنني كنت اليوم مسافرا .

ثم استأنف مضغ الطعام في ضيق ، ولما سألته أمي عن الحكاية أخبرها أن صراف الوزارة أعطاه خمسة جنيهات خطأ في حسابه وهويصرف له المرتب أمس ، ثم عاد أبي يسأل نفسه :

ـ لابد أنه بات يضرب أخماسا في أسداس . مساكين هؤلاء الذين يضيعون مالا وهم في أمس الحاجة إليه .

ووجدت الفرصة مناسبة فانفجرت بالبكاء . قالت أمي وأبي في نفس

واحد :

ـ ياسلام . إنك ولد طيب القلب .. لاتحمل الهم فأنت لاتزال صغيرا :

فأجبت :

ـ إننى .. إننى .. إن المصاريف ضاعت منى .

فأجاب أبى بحزم :

ـ إن الرجال لايبكون . لاتحزن . نحن لا شك فى حاجة إلى مثل هذا المبلغ .. لكن .. هل تظن أنك ستلدغ من هذا الجحر مرة أخرى ؟ أبدا .. لقد دفعت ثمن المسئولية .

التذكار الخالد

« هل من العدل أن ندعى ملكية السفينة وهى عائمة حتى إذا ما أدركها العطب ، أو هددها الغرق نسينا أنها سفينتنا وتركناها للموج » .

جلس ذات مساء يتابع أفكار نفسه ..

كان الشتاء فى إبانه والليل ساكن والجو مكفهر وشجرة عتيقة فروعها عوجاء تئز تحت النافذة الشمالية .

وكان يحس كأن شيئا ما سينهار فى داخله فجأة وبعنف لكنه كان يقاوم . وكان يسأل نفسه لماذا هو خائر القوى فى هذه الليلة ؟ ثم يتماسك جاهدا كمن سيصيبه الدوران وهو فى عرض الطريق .

وزوجته فى الحجرة الأخرى لا يدرى من أمرها شيئا كانت ولا شك تعانى ما يعانيه النساء إذا تعرضت عواطفهن للامتحان . ولكن .. ما له ومالها ؟! على كل منهما أن يتحمل ما به هو وحده . فليس فى الإمكان أن ينوب أحد فى حمل ألم الجرح عن أحد آخر .

وسمع فى الليل عدة طلقات تعالت متفرقة .. فى تراخ وكسل كأنما أصابتها دوخة فاتكأ فى الفراش وجعل يستمع بعدها إلى أزيز الريح .

إن ابنه لم يعد منذ ثلاث ليال . هذا حسن . لنفرض أنه مات ، فماذا يحدث ؟ سيحزن عليه هو ووالدته ويمتد بهما الحزن إلى ما شاء الله ثم يفيقان منه . وقد لا يفيقان لكنها فريضة . ماذا ينبغى أن نصنع إذن ؟ هل من العدل أن ندعى ملكية السفينة وهى عائمة حتى إذا ما أدركها العطب أوهددها الغرق نسينا أنها سفينتنا وتركناها للموج يحطم أضلاعها ؟ .

وابتسم الرجل وفى عينيه آثار دموع . وجاءه من الحجرة الأخرى سعال حاد صادر من امرأته . وأزت فى الجو طلقتان ناريتان . وصاح ديك فى حظيرة قريبة . ثم تحسس الجالس علبة سجائره تحت الوسادة وأشعل لفافة

وهو باق حيث هو . واستمر تيار أفكاره :

ـ إنه ابنه .. شاب كعمود الفضة المصمت ، وحيد .. على صباحة وجهه التقى قلبان . قلب أبيه وقلب أمه . وقد أودعا فى تربيته كل إمكانياتهما من الحب والمودة بسخاء القروية الحنون حين تصنع الفطير لابنها الذى عاد من السفر . آه ..

وكان أبوه يحدثه كثيرا عن قريتهم . والابن ينصت فى سكون لايعبر، أشبه مايكون بعدم الاهتمام ، حتى إذا ما سافروا يوما إليها سأل الولد والده فى لهفة :

ـ وأين يا أبى نصبت المشانق ؟

ـ هناك . فى الجرن .

ـ وأين يا أبى سجن أهل القرية ؟

ـ هناك فى المسجد . فى بيت الله . هل تسمع من على مئذنته قوله : « الله أكبر » ؟

ـ وهل شنقوا من أسرتنا كثيرا ؟

ـ أوه .. اثنين . قلت لك اثنين .. فلا تثر أحزانى .

وكان الحمام يحلق فى الفضاء يومئذ ويحط على الأبراج ويرتفع عنها كما كان يفعل فى « دنشواى » منذ سنة ١٩٠٦، والغلام ينظر بعينين سوداوين قويتين فى أعماقهما قوة لا تدرك ..

وعادت الطلقات النارية الدائخة تنبعث من معسكرات الاحتلال فى هجعة الليل فسحبت الرجل من أفكاره ، عندئذ سأل نفسه :

ـ على من يطلقون هذه الرصاصات .. لماذا لايرحلون ؟

ثم نادته صورة ابنه . أين هو الآن ياترى ؟ خرج مع زملائه منذ ثلاث ليال وقد أخفى خبر خروجه عن أمه . إنهن ضعيفات . لنلتمس لهن الأعذار

أما هو ـ يعنى أبوه ـ فلقد أعد نفسه لاحتمال أى طارىء .. ليكن ما يكون .

هل ندعى ملكية السفينة وهى عائمة فقط حتى إذا ناوشتها الأمواج قال بعضنا لبعض أنت الذى تملك الجزء الأكبر ..

وقهقه فى هدوء . وأطفأ السيجارة التى لسعته ثم تذكر الشكل . ماذا لو غاب هذا الولد فلم يعد إلى البيت ؟ ..

وفر من الجواب . واستمع إلى صياح الديك وأزيز الرصاص المتقطع ، فذكر حادثة قرأها ذات مرة :

« فى ليلة من ليالى الشتاء اعترض أحد اللصوص طريق رجل عائد من السهرة فلما فتشه لم يحصل من جيوبه على مايستحق النهب . عندئذ أشعل اللص عود كبريت وأدناه من وجه عابر السبيل فلما رأى على ملامحه آيات الفقر والحماس معا أمره فى تحد وغيظ أن يخلع معطفه عنه ما دام لايملك فى جيبه ما يفدى به ملابسه . فآثر الرجل أن يشتبك فى عراك مع لص أقوى منه بعد أن قال له :

« لا .. لن أسلم .. الملابس والعرض والوطن لايسلمها الشريف بدون قتال .. اتفضل » .

« واشتبك معه فى عراك أدركهما فى جلبته رجل البوليس » .

ثم سكت الأب بعد أن استعاد هذه الحكاية وجعل يوازن بين موتة الشرفاء وموتة الأذلاء فخيل إليه أن الجثة التى تموت شريفة لا يدركها التعفن ، أما الأخرى فإنها عفنة وإن كانت فيها الحياة .

وسمع نداء زوجته :

ـ صباح الخير .. هل صليت الفجر ؟

وبعد قليل جلسا إلى الطعام . وقضيا اليوم فى انتظار طويل كانتظار

الأيام الماضية .

***

الصحف تتحدث عن الفدائيين . والعصابات المسلحة من جنود الاحتلال تأخذ على المواطنين منافذ الطرق . ومصر تنبض كلها بثورة وطنية يغذيها شباب لم يكونوا قد ظهروا بعد على خشبة المسرح . والحكام حائرون بين الأجنبى الذى يحميهم والشعب الذى يطلب منهم ـ فقط ـ عدم الوقوف بينه وبين حقه الطبيعى فى الدفاع عن الكرامة . والأيام تمر .

حتى كانت إحدى الأمسيات فإذا بيد مستعجلة تدق الباب على الأبوين ويفتح الباب فى لهفة . فإذاشاب غريب واقف به يتحدث إلى الأب بلهجة تحمل مدلولهاالحزين ويقول :

ـ لقد أوصانى زميلى أن أحمل هذه اللفافة إليك .

ثم هبط الدرج الواطىء فى سرعة دون أن يتلفت فانخرط الوالدان فى البكاء ثم أفاقا .

***

ومنذ سنة ١٩٥٢ التى وقعت فيها هذه الحوادث . والتى فقد فيها وحيده ، وهو باق كأنما لينتظر حدثا واحدا ثم يرحل ، كان يقول فى نفسه : لقد استحالت حياتى إلى انتظار محض ، لو كنت أملك غيره من الأبناء لحاولت أن أقدم واحدا آخر . إن القدم الغريبة تؤلمنا حين تدوس على قدمنا فى الزحام فما بالنا بأقدام تدوس أوطاننا ؟!

وتندى عيناه بدموع الحماسة والذكرى فى وقت واحد .

لكن انتظاره لم يطل .

لاح له النور على الأفق منذ أخذت الأحوال تتبدل ، وظهر على المسرح

شباب غسلوا عن أرضنا العار . ولكن ..

ظل هذا الأب ينتظر اليوم الذى يختفى فيه ظل آخر جندى إنجليزى . سيكون هذا أشبه بيوم البعث . سيعود فيه الشهداء إلى الحياة . وسيرى ابنه بينهم . وبعد هذا لا يبقى له على الزمن مطلب يقترحه .

وفى اليوم الثالث عشر من شهر يونية سنة ١٩٥٦ تحققت أحلامه .

وفى فجر هذا اليوم قبل أن تشرق الشمس أخرج الأب تذكاره الخالد الذى بعث به وحيده وفحصه للمرة المليون . كان قميصا وبقايا بندقية وضعا فى صوانه الصغير إلى جانب بقية الملابس . وأخذت بصر الوالد فى هذه الوهلة قطعة خضراء من التيل . كأنما لم يكن رآها من قبل ، فلما تناولها وفحصها تذكر أنها منديل الكشافة الذى كان يلفه حول عنقه . . وهناك أشياء أخرى .. قمصان وأحذية ومناديل .. ومسدس كان يلعب به وهو صغير . وطربوش بلا زر .

وارتسمت على شفته ابتسامة وترقرقت فى عينه دمعة .

كان يتخيل من قبل أنواعا غريبة من الموت أدركت وحيده وهو فى ميدان الجهاد ولكنه اليوم لم يستطع أن يتخيله إلا حيا . عما قليل سيدق عليهم الباب ويدخل على وجهه ابتسامة أويخرج من غرفة مكتبه ، أويطلب نقودا لشراء كتاب مدرسى .

وما أشرقت الشمس حتى ارتفع ضجيج المواطنين من كل صوب . وأعلنت حكومة مصر رحيل آخر جندى إنجليزى ـ وبلا عودة ـ عن أرضنا العزيزة . وخفقت الأعلام الوطنية على الشرفات والأبنية والمعسكرات .

وارتفع فى بيت هذا الشهيد بيد أبيه علم عزيز على سارية عزيزة . كان فى الشرفة المطلة على الشارع والقريبة من الأرض حتى استوقف كثيرا من الناس كأنه أغنية ألفت خصيصا لهذا اليوم العظيم .

بقية البندقية ومنديل الكشافة الأخضر كان منهما السارية والعلم . ودموع الفرحة فى عينى الوالدين تجعل الجموع تتراقص .

وفى الحديقة الخلفية للبيت سرب حمام ظل يتوالد منذ عشر سنوات . كان وحيدهما يرعاه وينثر له الحب ويطيره ويسترجعه بالصغير . وعلى الرغم من الإهمال النوعى الذى لقيه الحمام بعد موت راعيه فإنه لم يتفرق .

وفى اليوم التالى بعد أن هدأت الفرحة فى مدينة بورسعيد نوعا ما ، رحل الأب إلى القرية . إلى« دنشواى » ..ومعه عدة أزواج من حمام بورسعيد أطلقها فى جو القرية كما يطلق البشير . فاختلطت بسلالات الحمام الذى أثار صيده مذبحة عالمية فى سنة ١٩٠٦، وكانت كلها بيضاء كأنها فى ثياب الملائكة .

وكان ذلك عصرا فى الوقت الذى كان فيه نسيم البحر فى « بور سعيد » يداعب علما أخضر هو منديل طالب .. فى فرقة كشافة .. ورفع على بقايا بندقية .

الجزاء الصالح

كانت شهرة أبى شيئا أعتز به كلما سئلت عن اسمى فذكرته للناس . وكانت نشوة عظمى تمشى فى كيانى حينما كنت أرى إيماءات الرءوس بالاحترام وأتمنى أن يكون لى هذا الشأن فى مستقبل أيامى حتى تدوم خضرة الشجرة .

لم يكن أبى واعظا رسميا وإنما كان من ذوى الرأى والوجاهة بين مختلف الطبقات . استطاع أن يجعل من ثقافته الدينية مصباحا هادىء النور يحبب الناس فى الله ويحبب الناس للناس . ويلقى بهذا المصباح على مشكلاتنا الحيوية أشعة ثابتة غير مرتجفة ترى النفس على ضوئها طريق هداها .

ودخلت مكتب أبى ذات مساء فرأيته غارقا بين كتبه يبحث وينقب وعلامات الإجهاد ترسم على وجهه المسن خطوطا وظلالا . وكنت فى صباح اليوم نفسه سمعت اسمه مقرونا بالاحترام من أفواه طلبة المدرسة الثانوية التى حولت إليها حديثا . ولما رآنى داخلا عليه تنهد فى ارتياح كأنما يتمنى أن يقطع عليه العمل إنسان ما فيتيح له فرصة إجبارية قصيرة يرتاح فيها بعض الشىء . ورفع وجهه عن كتاب أصفر الورق دقيق الخط سطوره متصلة كأنها سلاسل متساوية الطول . وقال لى بفم مبتسم :

ـ هيه .. كيف حالك فى المدرسة الجديدة .. مسرور بها ؟ اجلس قليلا .

فأجبته وأنا لاأزال واقفا فى مكانى :

ـ لا أريد أن أقطع عليك سير أفكارك يا أبى .. إنما أريد ....

فلم يتركنى أكمل عبارتى بل استطرد يقول بلهجة يشوبها ضجر وشكوى لايحس بهما إلا القلب الفطن :

ـ اجلس . اجلس أنا أريد أن تعطلنى قليلا .. أريد أن أرتاح . ولو دقيقتين .

وأشار بيده فجلست وترك الكتاب مفتوحا ورجع بكرسيه إلى الوراء وتمطى فى قفطانه الأبيض فبدت أكمام « الفانلة » المضبوطة على معصميه. ثم اعتدل كما كان وألقى نظرة على خطابات الاستفتاء المنشورة على المكتب. ونظر إلى بعين تفيض تعبا . وودا ومحبة ، كأنه ينتظر ماسأقول .

كنت فى هذه اللحظة أفرك كفا بكف وعينى إلى قدمى حائرا مترددا . وعز على أن أضع شيئا جديدا ولو خفيفا على حمل هذا الجمل لأن حمله ثقيل .. وتذكرت الخلافات الكثيرة والمناقشات التى لاتنتهى بينه وبين أمى . وعجبت لانعدام نقطة متوسطة يلتقى فيها هذان الأبوان . وركبنى حياء شديد أن أنطق بالرسالة التى حملتها إليه شفويا من أمى التى لم تشأ أن تدخل عليه الحجرة لأن آخر خصام قد نشب بينهما لم يصل بعد مرحلة التفاهم . وعرف أبى ـ الرجل الذكى الذى يعالج مشكلات الناس ـ أننى (سفير) فتبسم وقال لى :

ـ تكلم ..

قلت له :

ـ إنها لا تريد شيئا معينا ولاشيئا بذاته . لكنها تعلن حسما للنزاع أن ترضى أنت باعتبارها كما مهملا فى البيت وتسيطر بنفسك على جميع شئونه .

فسألنى بتهكم :

ـ ابتداء من أى تاريخ ؟

فأجبته كما أمرت :

ـ من غد إن شاء الله .

فقهقه الرجل المهزوم وضرب كفا بكف كأنه سمع نكتة ولدت لساعتها ثم انحنى على الكتاب بعد أن استمهلنى باشارة من أصابعه المجموعة مرفوعة إلى فوق وأخذ يقرأ بلا صوت وشفتاه تتحركان ورأسه يهتز قليلا كأنه يوافق على شيء .

***

سرحت طوال هذه الفترة أستعرض بعقلية ابن ستة عشر عاما ما يحدث بين هذين الزوجين من نزاع ينمو بقوته الذاتية ويتجدد فى المواسم كما تنمو النباتات البرية . وكنت أكبر إخوتى فكنت أصدر فى قضايا أبوىّ أحكاما أحتفظ بها لنفسى وكانت بطبيعة الموقف متناسبة مع سنى .

أما إخوتى الصغار فكانوا ينظرون إلى الضجيج والوعيد والتهديد والصراخ فى بعض الأحيان نظرات ثابتة يمتزج فيها التساؤل بالخوف ، بالأمل ، باللهفة الحزينة « العاجزة » ، بالتطلع إلى عودة السلام .

سرحت أسأل نفسى : لماذا عجز هذا الرجل الفخم المهيب ، الذى يحمل مصباح الهداية متطوعا من أجل الله ـ ليطوف به فيهدى التائهين ـ لماذا عجز عن السيطرة على زمام أمى ؟

وعضضت شفتى السفلى بأسنانى وأنا مطرق ونظراتى مصوبة إلى أعلى تقع عليه وهو يهز رأسه فى وقار وشفتاه تهمسان بالقراءة . وحجزت ابتسامة لم أر موضعا لها خفت أن يراها أبى فيتألم . علام أبتسم ؟ كان سببها أننى ذكرت تفاصيل نقاش اشتعل بينهما ذات مساء . وكان أبى فى طريقه إلى حجرته ، لكنها استمهلته حتى تقول له شيئا وهتفت :

ـ إن الطفلة الصغيرة حالتها الصحية تدعو إلى الخوف .

فأجابها :

ـ هذا هو ما قلته أنت ليلة أمس ، وقد قلت أنا : اعرضوها على طبيب .

فردت بضجر :

ـ الطبيب ، الطبيب ، باستمرار ، ليل نهار ، إنها محرومة من النزهة. محرومة من الهواء . هذه هى العلة .

وكانت أمى ضئيلة الجسم مرتفعة الصوت من غير موجب وتبعا لذلك فهى إذا غضبت صرخت .

وتوترت أعصاب أبى من حدة الصوت وارتفاعه وكشر كأن بوقا ضخما نفخ فى أذنه لكنه أجاب بوقار وهويتمايل كالشجرة إذا هاجمتها الريح :

ـ هيه .. المشكلة إذن مشكلة الهواء .. أنا ياسيدتى لاأعترض طريق التنفس بالنسبة لأى مخلوق . (وضحك) ثم قال بهدوئه الفطرى : « وراى شغل » . وانصرف .

ورأيتها ليلتئذ تطبق الغسيل بحركات عصبية وتتمتم بأمثال متناثرة وتفصل بين المثل والمثل بتنهد أو ضربة بيدها على كومة الملابس : « باب النجار مخلع » . « نكنس الجرن ودارنا عاوزة الكنيس » . « ودن من طين وودن من عجين » . « لله الأمر ياتمر » على رأى بتاع الشربات .

***

وكتمت الابتسامة فقد خفت أن يراها أبى عندما مرت برأسى هذه الخواطر . لم تأخذ أكثر من دقيقة كف أبى بعدها عن القراءة ومهد لكلامه بابتسامة حلوة ، ثم قال وهو يخبط بكفه على ذراع الكرسى :

ـ أيها السفير . لقد أحسنت السفارة .. لكن لماذا لم تأت هى بنفسها ؟ على كل حال يجب أن تكونوا بعيدين عن هذه المشكلة . يعز على يابنى أن

تقع هذه البقع على نفوسكم الغضة الطرية البيضاء فتلوثها ..

فتخيلت أنا أن زهرة بيضاء يدوسها حافر وأطرقت نحو الأرض وخنقتنى الدموع . واستطرد وهو يقول :

ـ إن تخليص الثياب من البقع ، وتخليص الورق من الحبر ليس سهلا كما يتصور الناس . كله على حساب الثوب والورقة . هل تفهم يابنى ؟ اذهب أنت وسأتولى الأمر بنفسى ، واستغل بوضع اللبنات فى جدار مستقبلك . رعاك الله .

وانصرفت إلى غرفتى وجلست أذاكر. وكنت على الرغم من ألمى وغضبى واشمئزازى من هذا الهواء الفاسد ، أحب فى أبى هدوءه وأغبطه على شهرته وأتمنى أن أكون مثله ، لكننى تجرأت مرة أخرى وسألته قائلا :

ـ لماذا يا أبى ؟ ..

فسأل :

ـ لماذا إيه ؟

فقلت :

ـ لماذا لايحسن الأطباء علاج أبنائهم حتى ولو كانوا ماهرين !! واحمر وجهى وارتبكت وخامرنى شبه ندم . فقهقة حتى لمس رأسه الحائط الذى خلفه ، وكنا وحيدين لاثالث معنا ، فأجاب :

ـ حسنا .. انتبه .. اسمع جيدا .. فأنت ولد ذكى : هل رأيت الفلاح وهو يسقى الحقل ؟ أو رأيت الجناينى وهو يروى الجنينة ؟ آخربقعة يسقيها بالماء هى تلك التى يقف فيها . يعنى ـ يابنى ـ إنه يسقى الأرض وما تحت قدميه ظمآن .. حكم . ثم سكت ثم استطرد : لكن .. هل تعتقد أن هؤلاء المصلحين الذين لايكافئهم الناس على مايبذلونه فى سبيلهم من مجهود ، أشقياء ؟ أبدا ، إنهم سعداء . لذة العمل نفسه تجعلهم فى غنى عن مديح

الناس . ثم هناك شيء مهم كان يجب أن تذكره أولا وهو الجزاء الإلهى .

ثم قام لبعض شأنه فودعته بنظرة إعجاب صامتة خصوصا لأنه كان قد نجح أخيرا فى إخفاء مشكلات البيت عن عيون الأطفال .

***

تخلى أبى عنا فى وقت مبكر نوعا . فمات وتركنا وانصرف وأحست أمى بالطرقة الشديدة . فوضعت يدها على رأسها كمن يتوقى صدمة ، وكانت تستغفره وهو فى الفراش فى لحظاته الأخيرة ، وكان يبتسم كعادته كأنه لم ير داعيا لهذا الاستغفار ، غير أن فى الاستغفار ـ على سمو معناه ـ اعترافا بالخطيئة .

أما ذكراه فى الداخل ، أعنى فى البيت ، أو على التحديد عند الزوجة التى نغصت عليه جزءا ضخما من حياته ـ فقد كانت تقديرا وحبا ، كانت تقديرا وحبا كان محتاجا إليهما فى حياته . لكننى اعتذرت لأمى بالنيابة عنها وقلت فى نفسى : إن الناس لايأخذون جزاءهم عن أعمالهم فى الدنيا ، كاملا غيرمنقوص ، وإلا ماذا يبقى لجزاء الآخرة عند الذين يؤمنون بها ؟ على أننى لن أنسى شيئا ، لن أنسى أن أقول : إن ترسمى خطا أبى وعطشى إلى مثل شهرته جعلنى أنا الآخرمشهورا لكن فى شيء جديد ، ولعل توفيقى فى حياتى ضمن الجزاء الصالح الذى كتبه الله لأننى .. أننى أحمل اسمه .

الرخيص الغالى

قبل أن تشـرق الشمس فى ذلك اليوم ويطير الندى عن تراب الطريق كان هـناك رجل يشـق طريقه بين المزارع على ظـهر حمـار آملا أن يصـل إلى « المركز » قبل أن يفوت الأوان .

وكان الرجل طويلا نحيلا . يركب حمارا قصير القامة ، ويرتدى جلبابا من الصوف قد انقضت أيام عزه وولت سنوات مجده . لوحته الشمس من على الكتفين فاتخذ النسيج لونا آخر . وتكاد رجلاه تلمسان الأرض لطول ساقيه وقصر قامة الدابة . وفى نعله البالى عدة رقع ، وفى يده عصا من الخيزران تشبه عصا « المايسترو » كان يضرب بها عنق الدابة من آن لآن كلما أفاق من الأفكار .

وهناك موسيقى بدائية تنبعث من حقول الذرة كلما شخلل النسيم بالورق يتخللها وقع الحوافر على الأرض أو شقشقة عصفـور يفر من شجرة إلى شجرة ، لكن هذه السيمفونية الصباحية لم تكن قادرة على أن تسحب هذا الراكب عن غمار أفكاره لأنه كان مشغولا بماهوبعيد عن الأنغام والوجدان والقلب والحب .

كان مشغولا بحسبة .. فهويجمع ويطرح ويوازن بين الأرقام ويعد مطالب أولاده وزوجته التى ودعته عند الباب وهوذاهب إلى البندر وطلبت منه أقة من البلح الأمهات وعلى وجهها صفرة النفساء .

كان عم هاشم يحسب فى نفسه قائلا :

« إنه ريال .. نعم ريال . لابأس به . سأحصل عليه فورا بعد أن أفرغ

من العمل الذى أنا ذاهب من أجله . وقبيل عودتى إلى دارى سأملأ هذا المنديل الكبير بخيرات البندر . لقد طلبت زوجتى بلحا وطلب أحد الأولاد عجوة وطلب الثانى جوافة .. على أن اللحم الجملى فى هذه المدينة الصغيرة جيد .. جدا .. و .. »

وبلع ريقه المتحلب ، وزجر حماره الوانى الخطوات حتى لا يفوته الوقت ثم لسعه بالعصا وحرك رجليه الطويلتين كما يحركهما الفارس بالمهماز ثم عاودته الأفكار . إن عم هاشم رجل غليظ القلب يعلل دائما قسوته على الناس بقسوة الناس عليه . « كيف تجنى الرمان من شجرة الحنظل ؟ » هكذا كان يقول .

وكان معاديا للأقدار أشد العداء ، يكاد يلعنها حتى فى صلاته .. ويتوهم أنها نصبت له فى كل مرحلة فخا لاتراه عيناه .

ولما كانت الدنيا تأخذ لون المنظار الذى يغطى عيوننا فقد بدت له خضرة الحقول سوداء ، وصفاء السماء دكنة وغبرة . وتفاعلت نفس عم هاشم مع أوهامه فأخذت كل منهما من صاحبتها وأعطت حتى فسد الطعمان . وأصبح المسكين ينظر لمآسى الناس بشماتة وراحة بال كأنما كان يأمل أن تعمم الأقدار بلواه فلا يبقى فى القرية قلب سعيد واحد .

ولما بزغت الشمس كان قد بلغ منتصف المسافة ، وبدا الطريق فى هذه البقعة موحشا ضيقا وحقول الذرة على الصفين كأنها غابات . وكان الراكب مشغولا بنفس الحسبة غير منتبه لشىء ولو أن الشمس الوليدة على الأفق توقظ الدنيا برفق وتدفئها بحنان ، لكنه أحس كأن الحمار يتململ من تحته وزاد تململه حتى صارضجرا . وبنظرة إلى الوراء رأى كلبا كبيراالجسم هزيلا كأنه مريض زائغ العينين يداعب رجلى دابته من خلف . ولم يزد عم هاشم على أن زجر الكلب ثم حث حماره على المشى . فوثب الكلب إلى الحقول .

فى صمت غريب وقطع الراكب بضع مئات من الأمتار ثم رآه مرة أخرى . كان كأنه قد تسلح بشىء ، والشراسة الحيوانية فى عينيه تنذر بشر جديد . وقبل أن يرتفع صوت الراكب بكلمة كانت أنياب الكلب قد نشبت فى مؤخر رجل الحمار فتوقف ونزل صاحبه ليدافع عنه فما كان جزاؤه إلا أن أعمل أظافره فى جلبابه الصوفى الذى ولت أيام عزه وانقضت أيام مجده فحدث فيه من الأمام ـ حيث لايستطيع أن يستره قطع كبير من المتعذر أن يمشى به ـ كضربة القضاء ـ بسرعة لا تدع للبديهة مجالا . وقعت هذه الحوادث واختفى المعتدى فى حقول الذرة . ولم يحدث أن نبح مرة واحدة إلابعد أن غاب داخل الحقول . هنالك صدرت منه نبحتان مخنوقتان حزينتان كأنهما تأبين ميت ، خشخشت بعدهما الحقول وغرد فى أثرهما عصفور وتعالى فى الفضاء بعد ذلك أنين ساقية .

ووقف عم هاشم حائرا مختل التوازن فأخرج منديله الكبيرالذى كان يأمل أن يعود به مليئا بخيرات المدينة وحوله ضمادة لجرح الدابة ثم ألقى نظرة على جلبابه الوحيد وقدر التلف الذى أصابه وانبرى يعاتب الأقدار .

ولم يكن هناك مجال للرجوع لأن المسافة الباقية أقل بكثير من تلك التى قطعها .. خيرله أن يذهب حتى لايخسر كل شىء . على أن إصلاح الجلباب ضرورة أخرى تحتم عليه المسير فى طريقه . ثم عاد يحسب قائلا :

« إنه ريال على كل حال . سيخف نزف الدم شيئا فشيئا . وسيصلح الجلباب بعدة قروش . والباقى .. أستطيع أن أحقق به معظم الطلبات » ..

والمهمة التى كان ذاهبا فى سبيلها مهمة غير مشروعة لكن ..

إن مشروعية الأعمال وعدم مشروعيتها تختلف فى ميزان الناس ، وإذا اختل ميزاننا مرة بعد مرة تحتم علينا أن نقضى مدة معقولة حتى يعود إليه ضبطه وحتى نغير بأيدينا من جديد « صنجاته » القديمة ، لذلك فإن



الذين يهبطون المنحدر قلما يتوقفون إلا إذا وصلوا إلى الحضيض . وكان عم هاشم يسب الطرفين معا والحمار يعرج . كان يسب الذين سيمد إليهم يده بالمساعدة والذين سيمد إليهم يده بالأذى . وأخرج من جيبه سيجارة ليشعلها وبعد أن وضعها فى فمه تذكر أنه نسى الكبريت فتنهد فى صمت ثم عاد لأفكاره قائلا :

« هناك فى السلسة حلقة مفقودة فقد كان هناك شبة مودة بين الدائن والمدين وانقطعت فجأة ، وتكلم الناس كما هى عادة الناس وعلقوا على الموضوع لكن .. أنا أرجح أن الدائن على حق . لست على علم بتفاصيل الحوادث ولكنها كلمة سأقولها كماهى العادة أمام القضاء ثم أخرج .. »

وكان قد دخل البندر فى هذه الوهلة . وكانت الحياة قد دبت تماما فى الشارع الرئيسى . وبدت أقفاص البلح الأمهات مرصوصة كأن فيها كهرمانا ، وأفخاذ اللحم على واجهات المحال تنبه شهية المعدة . وهناك أشياء أخرى لاقبل له بشرائها .

وعرج أولا وقبل كل شىء على دكان خياط فلفق جلبابه ثم اتجه إلى المحكمة وقابله الدائن وشد على يده وبرقت عيناه بمعنى الوفاء بالوعد ، ومرت عليه المرأة المدينة ..

كانت فى خريف عمرها تتعثر فى جلباب قروى طويل . داست عتبة المحكمة للمرة الأولى فدمعت عينها لحيف الزمن وقلة الرجال وكثرة العيال . وألقت نظرة خاطفة فارغة من كل أمل على وجه الرجلين ، الدائن منهما والشاهد ، ثم خطت إلى الداخل يتبعها غلام فى العاشرة من عمره على وجهه ملامح أمه وفى عينيه انكسار اليتامى .

وكانت المرأة ذات وسامة . تدرك الأبصار حين تقع عليها أن الدنيا جارت عليها فجأة وأنها تجاهد . ولم يكن فى وجهها بادرة واحدة من بوادر

الاستسلام ، نعم إنك قد ترى على وجهها ذلا ، ولكنه فى إطار من الصبر وتحت ظل رجاء كبير فى قوة مبهمة لكنها عظيمة .

وبدت على وجه الدائن أمارات الغيظ . وطوح عصاه ذات المقبض والحلية وسار فى كل اتجاه يضيع الوقت . وجلس عم هاشم فى فناء المحكمة يستعيد ماسمعه من الناس

إن هذا الذى جاء يشهد معه ضد هذه المرأة بأنها مدينة بعشرة جنيهات أرملة لفلاح مسكين دهمه الموت فترك أربعة من الأولاد أكبرهم فى سن العاشرة . ودخل الدائن فى ثياب الملائكة فى هذه الداربعد وفاة صاحبها، وفجأة أراد أن يلبس ملابس الشياطين وبخلت عليه الأرملة بما اشتهاه فانقطعت العلاقة لكنه عاد إليهم فى ثياب الملائكة مرة أخرى ، ثم مالبث أن ظهرت خبيئة نفسه فلقى من الفقيرة الحرة التى « تجوع ولا تأكل بثدييها » ما اعتبره مهينا للكرامة فقام النزاع ووصل بهما الأمر إلى حد أن أوقفها أمام القضاء .

ولأول مرة فى تاريخ ذمة عم هاشم شعر بقشعريرة تسرى فى كيانه لما ارتفع صوت الحاجب مناديا عليه . لكأن صحوة غير منتظرة دبت فى ضميره . . والأرملة الفقيرة جالسة وفى عينيها شجاعة ودموع . .

وكان القاضى جديدا على المحكمة ، كان شديد الهيبة شهى السمرة يمسح شاربه الأسود المائل إلى الغزارة وينظر بعينين ثابتتين . ولما مثل أمامه عم هاشم حملق فيه طويلا كأنه يلتمس فى ملامحه رجلا كان يعرفه . ثم طلب بصوت هادىء النبرات القسم المعروف :

« والله العظيم أقول الحق » .

وأقسمه الشاهد . ثم بحث عن ريقه فلم يجده . وأشعة قوية من عينين سمراوين تنبعث باستمرار . والسكون مخيم كأنما هبط الظلام .. إلا

من سعلة لرجل كهل كانت أشبه بلفظ الأنفاس .

ولم يتكلم عم هاشم فورا . واستمر برهة أخرى لأن نباح كلب غضبان تعالى خلف النافذة آتيا من الحقول . وكان النباح حادا أول الأمرثم استحال بعد قليل إلى عواء كأنه نواح وجعل يقترب شيئا فشيئا حتى بدا التأذى على وجه القاضى واستحث الشاهد على أن يتكلم . كان عم هاشم فى انتباه من يستمع صوت النذير .. خيل إليه أن الحيوان الذى اعترض طريق مجيئه قد تعقبه وربض له تحت الشباك . ونظر الشاهد إلى الأمام فرأى العينين السوداوين لاتزالان متربصتين له . وندت من خلفه تنهدة عميقة خرجت من صدر مهموم .. لم يسع الشاهد إلا أن يقول الحق .

ولم يكن هذا الحق فى صف الدائن بل كان فى صف الأرملة ، ولما خرج المتخاصمون كانت المرأة تدعو لعم هاشم ، وكان الدائن يعيره بتاريخ ذمته ـ باختصار ـ بماضيه المجيد . لكن الرجل لم يعلق بكلمة ..

وفى طريق العودة بدا كهرمان البلح الأمهات يخطف البصر وعناقيد الحيانى تحير الألباب ، واللحم الجملى السمين يثير جنون المعدة . لكن صوت الضمير كان لايزال عاليا فلوى وجهه عن كل ذلك بشىء من الاشمئزاز وتذكر الأرملة التى رضيت بذل الحاجة ومرارة العوز ولم ترض أن تبيع الغالى .

وتمتم الشاهد : صحيح .. آه .. يجب ألا نبيع الغالى رخيصا ، هيه .. وكل الذين هانوا فى حياتهم باعوا الغالى رخيصا أول الأمر .

وسكت . وسرح ذهنه يجمع الشواهد على هذه القضية . فتذكر زكية بنت عبد الموجود التى باعت الغالى رخيصا لأحد الناس فى ليلة ظلماء فعاشت بقية عمرها ذليلة . وتذكر فاطمة بنت عبد الخالق التى تركت أولادها بعد وفاة زوجها صغارا كأنهم أفراخ دجاجة وتزوجت رجلا جديدا . ومرت

الأعوام فكبر الأطفال وشاخ الشباب وأصبحوا يمقتونها فى ضعفها لأنها لم تحبهم فى ضعفهم . فمصمص شفتيه ..

ثم ذكر رجلا آخر ظل يتصعلك لأحد الأغنياء ويسير وراءه تابعا ذليلا من أجل تفاهات وبعد حين من الزمن خلعه الغنى كالشىء البالى بعد أن كان يتبعه مثل ظله .

ومصمص بشفتيه مرة أخرى . وفطن إلى أنه على ظهر الحمار وهويعرج به والطريق ضيق وحقول الذرة على الصفين ، فقال فى نفسه : « من زمان طويل وأنا أبيع الغالى رخيصا فلماذا ؟ » .

وتحت شجرة وحيدة رأى امرأة تستريح . كانت تمسح عرقها بطرف طرحتها لأنها قطعت المسافة ماشية ، وكانت هى المدينة التى رآها منذ ساعة وبجانبها ولدها وقد جلس وفى إحدى يديه خبز وفى اليد الأخرى خيارة يأكل فيها .

وسمعها تدعو له وهو مار عليها ، فرفع وجهه إلى السماء طالبا من الله أن يستجيب . وتصالح مع الأقدار . وحول البقعة التى هاجمه فيها الكلب أثناء ذهابه رآه واقفا مرة أخرى . ولم يكن على الطريق بل كان عند مدخل الحقل وقد بدا نصفه الأمامى فحسب . وكان فاغرا فمه يلهث بعنف وعيناه الزائغتان خاليتان من كل مدلول . وتأهب الراكب للدفاع عن نفسه لكن الحيوان لم يغادر مكانه . وبعد أن قطع عم هاشم بضع مئات من الأمتار رأى الكلب يدخل إلى الحقول . ولما غاب عبرها سمعه ينبح .. مرة أو مرتين عاد بعدهما الصمت أشد عمقا وسكونا .

وعند باب الدار رأى طفلين ينتظران . وكانت يد أبيهما فارغة مما طلبا فرقصت على وجهيهما خيبة الأمل . لكنه قال لهما : « إن أحد اللصوص هجم عليه أثناء الطريق وسلبه كل شىء » .

وأراهما آثار المعركة . فلما اعترض ابنه الصغير سائلا :

ـ ولماذا يا أبي يشتغل بعض الناس لصوصا ؟

حمله إلى الداخل ومشى يقبله . واحتفظ لنفسه بالجواب .

وطن الحب

تبدو الأشياء جميلة للغاية قبيل أن نرحل عنها نهائيا . تكشف لنا عن أسرار مفاتنها حتى نراها فى القمة . كما فعلت معى مدينة القاهرة فى ذلك اليوم القائظ شديد الحرارة من شهر أغسطس فى أحد الأعوام .

ركبت إليها القطارعائدا من القرية من الشمال بعد غيبة ليست طويلة . على الوجه سمرة ، وفى القلب فرحة .. تدبرتها مرارا وأنا على المقعد الخشبى فى الدرجة الثالثة .. تدبرت فرحتى وأنا بين باعة اللبن والجبن والخضروات ، فألفيتها ثورة نفسية كالتى يفعلها الكحول ـ على شىء لا يستحق الفرح ..

وهززت كتفى وأنا أنظر إلى المزارع عبر النافذة . حريصا على ألا يبدد عقلى لذة وجدانى . ثم نظرت إلى الوجوه المتعبة الجالسة من حولى فى غير نظام ولا أبهة ولاتقاليد . يأكل واحد منهم وهويتكلم . وينام ثالث وعلى شاربه فتات الخبز . ثم ألقيت على نفسى سؤالا وجيها جدا .. غاية فى الوجاهة والأناقة :

ـ لماذ لاأفرح .. ألست خيرا من هؤلاء ؟!

لقد ظهرت نتيجة التوجيهية وأنا فى القرية ونجحت ، غير أنه يجب أن تدرك أننى نجحت فى الدور الثانى .. وكانت فرحة أمى بنجاحى ضخمة لأن معرفة التفصيلات التى تتبع النجاح لم تستطع أن تطرق بالها . فتفسد عليها فرحتها . وغسلت وجوه القرويات يومئذ بأكواب الشربات ، ثم راحت السكرة وجاءت الفكرة ، وانتهينا جميعا ـ بعد أن خف لغط المهنئين والجو الصناعى الذى غمسونا فيه ـ إلى أن نسبة درجات نجاحى لاتدخل المسرة

على قلب أحد .

وعلى كل حال ركبت إلى القاهرة لأعمل ما ينبغى عمله ، وداخلنى وأنا أجتاز محطتها الكبيرة شعور غريب ، يشبه تململ الذى ينزع من أحضان حبيبه ، لكن هذه البادرة لم تلبث أن ولت ، ثم اندمجت فى الزحام .

***

نعم ..

حين وقفت أمام السور العالى لمدرستنا الكبيرة فى شارع درب الجماميز انقلب كل شيء فى نفسى رأسا على عقب . وقفت أمام بابها الضخم المصمت المصنوع من الخشب فلم أجده كما كان فى سالف الأيام ـ بابا لسجن مهذب . حتى هذا الباب لبس لى أجمل ما عنده . كأنما أحس أننى جئت خصيصا من أجله .. لأنظر إليه نظرة أخيرة وألمسه بأصابع بلغت من العمر ستة عشر ربيعا وأودع فيه مرحلة من مراحل التعليم والفكر والشباب والأحلام كذلك .

كان الوقت ضحا . وفى الحوش الواسع تفرق التلاميذ . ومقاعد .. ومناضد .. وسلال فيها أوراق مهملة .. وعلى مقربة من نهاية الحوش نهض تل كبير مرتفع من قماطر الطلبة ، رص بعضها فوق بعض فى انتظارالطلاء البنى .

والتقيت بالناجحين فى الدور الثانى ، ووقف كل منا يسخر من نجاح صاحبه ، وأكد ذوو المقدرة والصبر والكياسة منهم أنه لامفر من إعادة السنة.

ــ ماذا أعمل بخمسين فى المائة ياعزيزى ؟!

هكذا قال أحدهم وهويمط شفته ثم استكمل قائلا :

ــ إنها هزيمة فى ثياب زاهية .. حمراء وخضراء يفرح بها الأطفال .

وانطلقنا نضحك .. وكنا جميعا فى انتظار عزب أفندى لنأخذ أوراقنا

وبعد التحرى والسؤال عرفنا أنه لايزال فى « كنترول » الامتحانات من أجل أعمال تكميلية . وتركونى وانصرفوا . وأحسست أن المكان حولى شبه خال بعد انصرافهم ، فلذ لى أن أجول فى ردهات هذه المدرسة التى لن أدخلها بعد هذه اللحظة . لماذا ؟ لا أدرى !!

وفى الأماكن الخالية تبدو خطواتنا عالية الوقع جدا . وليس أمتع أبدا من أن تزور سجنا خاليا من المذنبين ، أو مدرسة خالية من الطلبة ، أومعهدا خاليا من الناس .. هذه الأماكن جميعا تكون أكثر فصاحة وصراحة مما لو كان فيها أحد . تبوح لك بأسرارها وتقول لك كل شىء !!

فقد سمعت وأنا عند باب الفصل الذى كنت طالبا فيه منذ شهرين ، كل ماقيل بين جدرانه طول العام ، لكن بشكل يلمس شغاف القلب .

على أننى قبل خروجى من الباب الرئيسى لمحت عزب أفندى داخلا يجفف عرقه ، فلما رآنى هنأنى ثم سخر من سمرتى :

ــ هل قضيت فى كفر البلاص وقتا طويلا يابنى ؟ إن آثار القرية واضحة عليك حتى فى طريقة قص الشعر . حلقت تحت الشجرة ؟!

وضحكت بتودد . ثم تبعته إلى الداخل . ولما رآنى وحدى لم يسوف فى تسليم أوراقى ثم صرح لى أن التحاقى بجامعة القاهرة محال محال .

ثم استطرد وهو يعيد إقفال درجه وينظف حذاءه بخرقة خاصة احتفظ بها على قاعدة الشباك المقفل :

ــ خلاص .. راح زمن المساندة .. هذا زمن « من جد وجد ومن زرع حصد » يابنى . طر إلى جامعة إسكندرية .

وأعاد غلق باب حجرته ، ثم خرج من المدرسة فى خفة النحلة .

***

أحسست بشيء من الحزن والمرارة من كلمات عزب أفندى ، وسرت أسترجع حديثه وأنا فى الشارع حتى وصلت ميدان السيدة ، فأحسست فجأة بالجوع ، كأننى تذكرت شيئا نسيته .

لم أكن قد تناولت إفطارى فعرجت على محل حيث ملأت بطنى ، ثم شربت كوبا من الشاى ، واستطاعت الساعات التالية أن تمحو من نفسى القلق وتجعلنى أكثر هدوءا . وحاولت وأنا على مقربة من النيل أن أفكر بطريقة أخرى . بطريقة أمى القروية التى جرفتها الفرحة بنجاحى حتى بلت جردلا من الشربات .

وبعد انقشاع الغيوم يظهر كوكب ما . شمس أو قمر أو حفنة من النجوم . فبعد هدوء نفسى ظهر لها الكوكب . فذكرت الفتاة التى ربط بينى وبينها حب جميل . أيام كنا نلتقى فى الشارع المتعرج الضيق ونحن ذاهبان أو عائدان من المدرسة ، وتزحمنا العربات فنلجأ إلى الطوار وتحتك أجسامنا .

وسألت نفسى وأنا ألقى على المدينة نظرة حنونا :

ـ ماذا بقى لى فى القاهرة ؟! لقد أخذت أوراقى من المدرسة ، وبقى لى بعد ذلك شيئان .. حقيبة صغيرة فى اللوكاندة ، وحبيبة جميلة أرجو أن أودعها .

لم يكن بينى وبين أهلها علاقة عائلية حتى أذهب إليهم فأقول لهم : « نراكم بخير » وعيوننا تختلس النظر وتقول ماتريد . وهى تسكن الحى الوطنى الذى ولدتها فيه أمها . وأبوها موظف فى التموين يعرفه كل الناس هناك ؛ لأنه كان يوزع عليهم كوبونات الجاز فى الحرب الأخيرة . وهو يشرب الشيشة فى القهوة المواجهة ، أمام بيتهم تماما . من يجلس هناك ويرفع طرفه للدور الثالث لايستطيع أن يرى من فى النوافذ .

وجلست مرة فى هذه القهوة عند بدء علاقتنا . وجعلت أردد النظر بسذاجة إلى شباكها ، حتى كدت أقع فى إشكال . وتناولتنى أنظار من حولى لولا أن سارعت بالرحيل .

كانت غائبة لمدة طويلة ، فلم أطق إلا أن أطمئن على وجودها . وكم ضحكت منى يوم التقينا ، وقصصت عليها القصة ، وحمدت الله على سلامتى .

لكن هذه الحادثة قد مضى عليها سنتان ، وكل شىء تغير .، والحب لايعرف المنطق ، خصوصا فى ساعاته الحرجة ، وكنت عازما على أن أقدم لنفسى كل ماتشتهيه فى هذه المدينة ، فسـرت نحو الحى ، سـرت وأنا أهمهم :

ــ أوراقى فى جيبى .. وحقيبتى فى اللوكاندة .. ولم يبق إلا أن أراها.

وطالت جلستى فى القهوة ، ولم أر رجلا واحدا يدخن الشيشة حتى أظن أنه أبرها ، فأجد تعليلا صالحا مريحا ، يرضى قلبى فلا أقلق لمنظر النوافذ المقفلة جميعا .

وكان هناك واحدة منها قد التقى مصراعاها الخشبيان التقاء غيركامل ، فألفا مثلثا عند القاعدة ، خيل إلى أنها تنظر من خلاله .

وطلب شايا ثم قهوة ثم غازوزة لأضيع الوقت ، ولكن شيئا لم يتغير وبدا صبى القهوة ذو « المريلة » التيلية والقلنسوة الشبيكة ينظر بشك وريبة وكأنه أدرك سر ما أهتم به ، فحين مر عليه بائع التين الشوكى ، علق هو على ندائه وعيناه فى عينى قائلا :

ــ الحلو جبر .. مافضلش منه !!

ثم بدأ الراديو يغنى : « كروان حيران » فانخرط الشاب فى ضحك يثير الغيظ ، وأخذ يدعو للكروان بالهدى والراحة .



وكان على بعدئذ أن أثبت أننى نقى الخطا ، وأن جلستى خالية من كل شبهة. لم يرق لى أن أتسلل منصرفا حتى لا تتابعنى ضحكاته ، فإذا بى بعد أن دفعت الحساب أندفع داخلا من باب البيت . هكذا .. هجوم بلا روية .. وهناك حيل تقليدية معروفة تنجى ولاتقنع ، سأتذرع بإحداها ، إذا ماوقعت فى مأزق كأن أسأل عن عبد المعبود أفندى . أو المعلم رشوان . أسماء وهمية تتيح لى أن أرجع من على السلم . والسلام ..

***

بعد عشرين دقيقة تماما من هذه الوقائع كنت فى اللوكاندة أسترد الحقيبة وأدفع الحساب ..

وبعد عشرين دقيقة أخرى كنت أخطو عبر المحطة الكبيرة أنظر إلى الوراء كلما خطوت عدة أمتار ، فأرى القاهرة كاشفة عن مفاتنها ، كأن جمالها كله سار يشيع خطواتى .

وفى القطار كانت المقاعد مزدحمة .. نفس الدرجة الثالثة بمقاعدها الخشبية وركابها المألوفين . ناس يأكلون وهم يتكلمون ويشربون ليمونا من بائع على الرصيف .

وأخذت أجفف عرقى وأستعيد تفاصيل الرحلة . وفى هذه اللحظة بدأ القطار يتحرك ، وأخذت كلمة « مع السلامة » تأتى من كل اتجاه .. تدخل من النوافذ وتخرج منها بتبادل شبه منظم . وحقيبتى الصغيرة بينى وبين راكب نحيف .

وجعلت أحسب الحسبة ..

ـ أوراقى فى جيبى فى طريقها إلى جامعة الإسكندرية ، وحقيبتى فى جنبى ، أما الحبيبة ..

لقد كان فى بابها قفل ضخم يتدلى كأنه رصد على كنز أو صمت على

فم جميل . آه .. كانوا مسافرين .

فكتبت على الحائط عند صدغ الباب اسمى بالكامل . اسمى وحده . بقلم كوبيا . ولم يكن معه أية عبارة . كنت آمل أن تقرأه وتذكره مجردا حتى من أى ذكرى ..

وعلى كوبرى « إمبابة » شعرت أن القاهرة بعدت عنى جدا . بألف كيلو متر أوأكثر . ليس القرب والبعد بقياس المسافات . فوضعت كفى على معدتى الجائعة وأخرجت من الحقيبة بعض قطع السندوتش .. لكن قلبى لم يكن له غذاء .

كما تزوج آدم

« كيف نأكل الأسماك المحفوظة ما دمنا قادرين على أن نأكلها طازجة يوما بيوم ؟! على أن خير أنواع السمك هو ما تجد العناء فى صيده أيا كان .. إنك حينئذ تجعل من طعامه رياضة وتسلية ومضيعة للوقت ومجالا للتفكير وحقلا تزرع فيه تجاريك . وأخيرا تحظى منه بأكلة لذيذة ! »

وعندما يفرغ صديقى من سرد هذه العبارات ، يحملق فى محدثه ليرى أثر وقعها فى نفسه ، وعليه هيئة لاتخلو من النفخة ، فلم يكن فى الحقيقة يتكلم عن الأسماك وإنما كان يتكلم عن النساء ! وإذا عاد محدثه بأفكاره إلى العبارات التى قالها ردا على سؤاله : « لماذا لم تتزوج ؟ » وطبقها فقرة فقرة ، لفه صمت عميق ـ حقا ـ حتى يفرغ من القضية :

« سمك محفوظ يعنى امرأة فى البيت » .

« خير أنواع السمك ماتجد فى صيده عناء يعنى .. »

وبقية الفقرات لاتحتاج إلى توضيح .. وهكذا انقلبت الحياة فى كيان هذا الرجل إلى لعبة متجددة فيها غموض المساء ، ولهفة المقامر ، ولذة الربح ، وحرقة الخسارة . وفيها أيضا دمعة المودعين على رصيف الميناء ، وفرحة اللاتذين إلى المخدع بعد الغيبة الطويلة فى قبلة لايقطعها إلا الحاجة إلى التنفس .

ولكن محدثه لايلبث أن ينسى كل هذه الثمرات ويقول لهذا الرجل الذى طالت عزوبيته :

ـ لا يا صديقى .. ليست هذه حياة !

ـ لماذا ليست حياة ؟ لنحسب الربح والخسارة ..

فيرد الثانى فى تأفف من يخشى على عقيدته من مناقشة الزنديق :

ـ لا .. لا داعى للحساب . لقد تزوجت كما تزوج آدم ، وأعدانى داء الزواج كما أعدى أبى وسأظل مريضا بالمرأة التى فى بيتى حتى يكتب الله لى الوفاة ! .

ثم يبتسم له مودعا .

***

وإذا التقيت بهذا الرجل ذات مساء فإنك تعرفه ولاشك من بين مائتى رجل .. له رائحة تسبق شخصيته ولاتنتسب إلى طائفة من الروائح المعروفة . إنها أنفاس روحه التوية الواثقة من أنها تفعل إذا شاءت .. عيناه قلقتان وهندامه متوسط ، ولكن عليه أمارات العناية من الوقوف أمام المرآة .

وأهم مايلفت نظرك فيه نظافة القميص ، ولمعان الحذاء . وبريق الشعر .. ثم العينان القلقتان تبحثان عن شىء ، فكأنه ـ دائما ـ على موعد سبق إليه المرأة التى ينتظرها !

وفى بيته تذكارات كثيرة لنساء عبرن فى حياته :

بعضهن أمل فى الزواج ، وبعضهن قنع بالحب ، وبقية المجموعة شربن من نهره ثم انصرفن حين أيقن أنه لا خير فيه .

قال عنه بعض المحرومين من الذين يصفرونه سنا :

ـ إن فى نفس هذا الرجل عقدة غامضة .. لابد أنه رأى من خيانة المرأة صورة بشعة جعلته هكذا أشبه بالثور فى حجرة التماثيل ! .

ولم يكن هذا إلا حديث خرافة لأننى كنت أعرف ماضيه .. انزلقت مركبة حياته على طريق ممهد فلم تحدث فيها قلقلة ولاهزات وكل ما فى الأمر أن هذا الرجل لذ له أن يجرب قواه فى حمل « الأثقال » ناسيا أن أبطال هذه الرياضة ـ لأنها ككل رياضة ـ يجب أن يعتزلوها وهم أقوياء بعد حفلة

ينثر الجمهور عليهم فيها الزهور وإلا فلم يكن هناك مفر من أن يخرج من الميدان مهزوما جريحا ! .

كانت علاقته فى قمتها مع امرأة كثيرة الشبه به ، تجدد حياتها معه كل يوم بأكذوبة تشبه الهواء الذى تملأ به إطار العجلات حتى تواصل الرحلة ..

فى بدء علاقته بها أخبرته أنها مربية فى بيت أحد الباشوات وكانت تحدثه عن الطفل ابن السنتين ذى العينين الخضراوين والشعر الأسود ، وعن اجتماع النقيضين على وجهه الفاتن .. ثم تحتضن حبيبها وتناغيه مثل ما تناغى الطفل ، وتغمض عينها وتحلم بأن يكون لها ولد مثله .. ممن ؟

ولايعلق هو على هذا التمنى لأنها بلا زوج ..

وبعد عدة أشهر من علاقتهما اكتشف أنها خارجة من إحدى المدارس الصغيرة غير التابعة للحكومة .. رآها بعينيه ، لم يخبره أحد وإنما رأى بنفسه ، فلما ألح عليها فى السؤال ظهر أنها مدرسة بها بمرتب أصغر من المدرسة بين طائفة من الجهلة الفاشلين .

وبعد عدة شهور أخرى دعته إلى بيتها ..

كان الفضول يملأ جوانحه ليلة كان ذاهبا إلى هذا البيت ، إن الكذاب يبهر ـ إلى حد الغيرة ـ إذا عثر على من هو أكذب منه ..كما كان الفنان يبهر ـ إلى حد الغيرة ـ إذا عثر على من هو أبرع منه!

كان يفكر فى ماذا عسى أن يلقى عندها . وكان الوقت مساء وريح طرية تعابث سطح البحر ولطمات رتيبة تنثرها الأمواج فى سمعه على طول الطريق . واستقبلته عند الباب بفرحة كبيرة ، وجلسا فى الصالة يتحدثان كأنهما لم يلتقيا من قبل .

قصت عليه موجز حياتها . وهو طبعا لم يصدقه .. وأخبرها هو عن

موجز حياته وكان فى عينيها تصديق مفتعل . وكل الذى يهمنا من لقاء الليلة أنه اكتشف أن سبب انحطاط أخلاقها راجع فى الأصل إلى إهمال زوجة أبيها لشأنها. كانت تتركها تفعل ماتشاء بلا قيد ولاشرط .. والحرية فى يد الصبايا كالمشرط فى يد الأطفال ، بعضهم يجرح به كفه وبعضهم يقطع به الشريان .

قال لها مداعبا وهو يشرب القهوة :

ـ ومن الغريب أن دمك حتى الآن لم يكف عن النزف .

ولم تخل ضحكتها من المرارة . لأن الذين يتمرغون فى الأوحال قد يتوقفون برهة لينظروا ماآلوا إليه .. ثم .. يستأنفون التمرغ !

وعندما اكتشف فى هذه الليلة أنها أيضا اشتغلت ممرضة فترة من حياتها ، استغرق فى ضحك لم ينتزعه منه إلا رنين جرس الباب .

***

إنها ابنتها التى تسكن معها !!

فتاة فى عز الشباب سمراء « هفتانة » كأنها ضحية الجوع .. عليها مسحة العاملات وجمال الفقيرات وتحفظ الشريفات فى وقت واحد !

ـ هل هذا ممكن ؟ !

هكذا سأل نفسه حين سلمت عليه وجلست ، ثم نظرت فى كفيها وانسحبت إلى الداخل .

وظلل الجلسة بعد ذلك كابوس ثقيل .. وكان فى عينيه عدة أسئلة موجهة للمرأة :

« هل هى ابنتها حقيقة ؟ » .

« لماذا إذا دعته إلى بيت فيه ثالث غير الشيطان ؟! »

« هل تريد أن تعقد صلة ما بينه وبين هذه الفتاة ؟ » :

« وإذا جاز أن تكون الفتاة ضحية إهمال زوجة أبيها فكيف يجوز أن تكون الابنة ضحية دفع متعمد من أمها العزيزة ؟ » .

« ثم الطيبة الواضحة على وجه هذه الصغيرة .. أهى أكذوبة متقنة كالتى صنعتها أمها ؟ »

وتحدثت ، فأكدت له أن عودة الفتاة لم تكن منتظرة وأن هذا شىء خارج عن حسابها ، فسلم وانصرف . مصدقا أو غير مصدق ..

وانقضت فترة لم ير فيها كذابته المحبوبة ، كانت قادرة على أن تبعث فى نفسه الشوق . وعلم من الفراشة فى مدرستها أنها مريضة منذ زمن فلم يملك إلا أن يذهب إلى البيت .

ولما فتحت له الفتاة دلف إلى الداخل كأنه فى بيته . وجلس على أقرب كنبة فى الصالة وتبعته الفتاة وعلى وجهها دهشة وقلق . ثم علم منها أن أمها نزيلة أحد المستشفيات ولم يستطع أن يعلم من الفتاة حقيقة مرضها بالضبط .. قال :

ــ لكن .. أهى بخير ؟

فأجابت دون أن تنظر إليه :

ــ بخير تماما .. ليس هناك ما يخيف ، ستكون هنا بعد يومين .

ولما فاحت من كلامها رائحة عدم المبالاة التى تقرب من الاحتقار ، لذ له أن يعرف حقيقتها هى ، فسألها بتلطف شديد :

ــ ألاترين فى ولو شيئا واحدا يبعث على الثقة ؟ من الممكن أن ينتفع الإنسان بأخطر الأدوات إذا استعملها بمهارة أيتها الفتاة ، فقد أستطيع أن أكون عونا لك على أى شىء ينفعك فى حياتك ..

فنظرت إليه من بين أهدابها وقالت :

ــ لم أشعر فى يوم ما أننى محتاجة إلى معونة أحد !

ـ حتى أمك ؟!

ـ ليس هذا من شأنك ..

ـ هل نسيت أننى فى بيتك فأهنتنى ؟!

ـ ومن أخبرك أن هذا بيتى ؟

فسأل مغالطا :

ـ هل أفهم من هذا أن إقامتك فيه مؤقتة وأنك فى طريقك إلى البيت الذى تحلم به كل فتاة ؟

فأجابت وهى تنظر إلى أظافرها :

ـ لا أدرى ؟

فانصرف إلى المستشفى وهو يحمل بين جوانحه استفسارا ..

وهنالك التقى بأمها ، وكانت صفرة المنزوفة واضحة على وجهها . لكن ذلك لم يمنع ابتسامتها من أن تتلألأ وتضىء ..

قال لها وهو يجلس على حافة الفراش :

ـ لن أسألك عن السبب فأنا واثق أنك لن تقولى الحقيقة .

فعادت ابتسامة جديدة تتلألأ لكن طعم الأسف كان ممزوجا بها ..

ـ سأكف عن الكذب .. لأننى سأكف عن الكلام نهائيا بعد أيام .

ـ يعنى ؟

ـ ليس فى كلامى غموض .. ها أنت ذا ترى وجهى . ثم تلألأ فى عينيها دمع كثير. فقال ليصرفها عن الموقف :

ـ سألت عنك فى البيت وقد قابلتنى الفتاة ..

ـ ابنتى ..

ـ ابنتك صحيح ؟!

ـ آه .. قلت لك إننى لن أكذب .

ـ إن الاختلاف كبير !

ـ فى أى شىء ؟

وابتسمت فاهمة ما يقصد .. فابتسم فى صمت قالت بعده :

ـ ربما يكون هذا هو الشىء الجميل الذى نلته فى حياتى ، كان ممكنا جدا أن يتطاير الرشاش منى إلى ثيابها النظيفة لكنها ظلت تكرهنى ، عاشت معى كأنها غريبة .. أبوها مات غريقا ذات يوم وهويستحم فى البحر .. وكانت هى ماتزال صغيرة . وسارت حياتى على النمط الذى عرفته . أنت أعز رجل فى حياتى فلا تنسنى . المهم .. أنها عملت فى أحد مصانع الحلويات . وجلبت لها كثيرا من « العرسان » فأبت أن تتزوج عن طريقى .. كان عملها هذا ألما جميلا لنفسى فرحت به .. وهى تحب أحد الموظفين فى نفس المصنع وقد اختارته واختارها ..

فأجاب وهو ينظر إلى بعيد :

ـ فى الدنيا شرفاء كثيرون .

فأجابت بجهد شديد :

ـ فى البيت الصغير الذى أسكنه .. حجرتان .. كل حجرة تسكنها امرأة تمثل .. طائفة من النساء !

وبكت . وسال دمعها على وجه ينذر بعدم عودة الحياة .

***

وفى الخريف التالى كان الشط خاليا من الناس .. وكان هو نفسه ماشيا ينقل خطاه وفى رأسه أفكاره عن هذه المرأة الفاتنة الكذابة التى ماتت من بضعة شهور . وكان يسائل نفسه عما عسى أن تصل إليه حياته فقد كان على الرغم من صديقاته الكثيرات يحس أن ركنا كبيرا فى قلبه قد انهار .. سأل نفسه :



ـ ممن أتزوج ؟! أريد أن أتزوج !

فذكر للتو قولها قبل أن تموت : « فى بيتنا حجرتان كل حجرة تسكنها امرأة تمثل طائفة من النساء » . وتحت ظل هذه الذكرى لمح فتاة تتأود فى يد زوجها . ماشيين على الطريق فى سعادة . ولما حملق فيها عرف أنها بنتها فكأنما شاءت الأقدار أن تجسم له الذكرى .. ذكرى الشريفة التى لم يستطع الرشاش القريب منها أن يبل أطراف ثوبها ! .

أرضى وعرضى

« مهداة إلى الذين أنكروا حقنا فى القناة »

لم يكن القمر قد نهض بعد . وشهر يولية سنة ١٩٥٦ كان فى آخره .. شديد الحرارة كأن الحماسة قد لحقت أيامه ، والقرية على الرغم من أن الكهربة لم تدخل إليها - فإنها ذات أفكار مستنيرة ..

نعم . لم يكن القمر قد نهض بعد ، والجو حار رطب ، والشجر ساكن كأنه مرسوم . ولم أتناول عشائى باكرا كأننى نسيت ، كنت فى إجازة تركت فيها القاهرة لأقيم فى القرية بضعة أيام ، وعندما هبط المساء كنت لا أزال جالسا فى مكانى ، والغبش طوى كل شىء فلا تستطيع أن تعرف الأشخاص إلا من أصواتهم أو طريقة مشيهم .

وكل من مر يقول :

- السلام عليكم ..

- وعليكم السلام ..

أرد بنبرة فارغة لأننى كنت أفكر فى أشياء ضخمة كانت تملأ رأسى فلا تترك فيه مكانا حتى لرد السلام بطريقة واعية .

- السلام عليكم .

- عليكم السلام ياسيدى ..

ولم أستطع أن أرجع لأفكارى فإن الذى ألقى على التحية عرج حيث أجلس وسلم ، كان شابا طويلا نحيف العود لاتتفق جهرة صوته مع قوامه الخيزرانى ولا طراوة كفه مع مقاطع كلامه ، ثم قال وهو يجلس إلى جوارى :

- ألا تعرفنى ياعمى ؟

فأجبت متلمسا سبيل العذر :

ـ أنت تعرف أننى لا أدخل القرية إلا من حين إلى حين لذلك فإن الناشئة تنمو فلا أراها إلا بعد أن يتم النمو .

ـ إذن فأنت لاتعرفنى ؟

وضحك ، فضحكت ولم أجب ، وقال :

ـ أنا ابن الشيخ مغربى .. أنا فتحى ، هل نسيتنى ؟ فربت على كتفه وأنا أقول له :

ـ أوه .. لقد كبرت ، أهكذا يصبح الأطفال شبانا ، أظنك الآن فى الجامعة أو على وشك الالتحاق بها .

ـ تماما ..كل شىء ينمو يا عمى ...

وتركته يقول كلاما لم أنتبه إليه بل كنت مشغولا بما فى نفسى .. كنت أقول : أجل .. حتى الأفكار ، حتى العقائد .. كنا نظن فى مصر ..أن هناك أشياء من المحال أن تنمو ..

ـ السلام عليكم .

ورد فتحى الجالس إلى جوارى :

ـ عليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

واستطردت أنا فى أفكارى : فإذا بهذه الأمانى تصبح أضخم مما يتصور العالم . أجل . كل شىء ينمو . لكن ..لا بد من تهيئة الجو الدفىء لتسلم النباتات الصغيرة ونأخذ منها أشجارا ، كما ندفىء الأطفال بالأقمطة واللفائف لنأخذ منهم رجالا .. آه .. هذا صحيح .

ـ وعليكم السلام ورحمته وبركاته .

وأفقت من أفكارى ، لقد حضر عم سليم الأمى العجيب الذى لايقرأ ولايكتب ، لكنه يعرف كل شىء ؛ أول فلاح فى القرية أدخل جهاز الراديو فى داره ، وباع من أجله أشياء كانت عزيزة على زوجته . يسمع نشرات

الأخبار من كل محطة ويعرف مواعيدها على التحديد . ويتسمر إلى جانب أى شخص يمسك جريدة . ويعلق على الأنباء كأنه إذاعة ، ويتكلم عن أسعار القطن . ولما جلس عم سليم عرفت أننا سنتكلم ، سيخرج مجال حديثنا عن سيرة الناس وأخبار المعارك والصلح والخصام ، وابتدأ عم سليم يقهقه ويضرب كفا بكف كأن الذى حدث عجيب لم يخطر على بال ..

ــ ماذا بك ياعم سليم ؟

ــ والله يا أستاذ إنه شيء يحير . من يصدق كل هذا ؟

ــ هل من الممكن أن أعرف « كل هذا » ياعم سليم ؟

وانضم إلى الطالب يسأل فى تطلع وإلحاح : وكنا نعلم أن هذا الرجل العذب الكلام الحافظ لكل الأمثال لن يقول كلاما غيرمفيد ، فاعتدل فى جلسته وأخرج من جيبه علبة الدخان وابتدأ يقول وهو يلف السيجارة :

ــ سمعت فى الراديو تمثيلية عجيبة ملخصها أن أحد الفلاحين الفقراء ورث عن أبيه دارا صغيرة تطل على الخلاء وبجوارها جنينة صغيرة أيضا لا يزيد مافيها على بضع نخلات وأشجار من الليمون ..

ــ وعليكم السلام ورحمة الله ..

ــ ماذا تقول ياعم سليم ؟

ــ اقعد واسمع .

وكانت الحرب العالمية فى ذلك الوقت قد أكلت كل شيء حتى الحديد، وكان لهذا الفلاح الفقير جارغنى قوى يرهب أهل القرية بوسائل مخيفة ؛ فى ذات ليلة سمع الفلاح الفقير دقة على باب داره فقام وفتح . رأى أمامه جاره الغنى وسمعه يستأذن فى الدخول وعلى وجهه دلائل المودة ..

ــ السلام عليكم ياجماعة .

ــ عليكم السلام . اقعد واسمع .

واستطرد عم سليم :

ـ وقال له الفلاح : أهلا وسهلا . وتركه ودخل يخبر امرأته بالخبر فتأكدت له أن هذه الزيارة لن تكون لوجه الله . وشرب عنده الشاى وأخيراعرض عليه أمرا عجيبا .. قال :

ـ اسمع يابنى .. أنت تعرف أن الحرب قد أكلت كل شىء فى الدنيا . وأنا محتاج إلى « طلمبة » ولكن بعد تفكير اهتديت إلى أنه بدلا من التكاليف والمصاريف فإنى أرجو أن تسمح بأن أصلح مافسد من شأن المضخة القديمة التى تركها لك المرحوم فى الجنينة الصغيرة : هى لاتزيد على أنها أنابيب ممدودة فى الأرض وأنا ـ بعد ذلك ـ سأحضر من يخرجها ثم أعيد دقها فى الأرض وأركب لها أما وبقية الطلبات . وعندما يسيل منها الماء يكون لك ملكها كما هو طبيعى ، ولى حق استعمالها وعلى نفقات إصلاحها . فقال الفلاح : دعنى أفكر حتى الصباح .

قالت أصوات :

ـ نعم .. هذا يدعو إلى التفكير .

قال عم سليم :

ـ وعند الصباح رجع الجار وأكد أنه لايبغى إلا مصلحة الفلاح . وقبل الصفقة ، ونفذ الأمر .

ـ عال .

وبعد مضى بضع سنوات تبدلت الأحوال . ورأى الفلاح أن داره التى يقيم فيها لم تعد تسعه فأحضر البناء وأراد أن يبنى دارا فى الجنينة التى ورثها عن أبيه وجده ، وأخذ ينقل مواد البناء إلى هناك ، وعندئذ وقع له مالم يكن فى حسابه . رأى جاره الغنى يقول له فى غضب شديد : ماذا تفعل ؟ إنك بهذه الطريقة ستدخل المضخة فى مكان مقفل وتصبح ملكا لك . قال

الفلاح دهشا : وهل تنازعنى فى إنها ملكى ، إنها فى أرضى .

قال الجار : لكن .. من الذى دق أنابيبها فى الأرض ؟

قال الفلاح : إنها كانت موجودة فى الأصل ، وافرض أنك اشتريتها ، فهل معنى انتفاعك بها أنك تملكها وتملكنى ؟

قال الجار : لكن أهل الحى يملأون منها وأنا أرى أنه لا بد أن أدافع عن حقهم .

قال الفلاح : هذا شىء غريب ، تكلم عن شأنك ودع غيرك ليتكلم عن شأنه ، هل أنت وكيل عن الناس ؟

قال الجار : أنت تعرف أننى قوى .

فضحك الفلاح حتى انقطع نفسه ثم قال : وأنا أعرف شيئا واضحا .. الأرض أرضى وكل ما فيها مالى وعرضى . فاذهب واصنع ماتشاء .

وسكت عم سليم وتوهجت سيجارته فى ظلمة الليل وهو يجر منها نفسا عميقا ، وكان الصمت مخيما على الجالسين ، وكنت أنا والطالب الجالس إلى جوارى فاهمين كل شىء . أما معظم الباقين فكانوا يمصمصون بشفاههم عجبا ، وقبل أن يتكلم أحد من الفلاحين الجالسين إلى جوارى حضر الشيخ عبد الباقى وألقى علينا السلام . كان كفيفا يتلمس الأرض بعصاه ويتمتم بآيات من القرآن وهو سائر . ووقف أمامنا لايريد أن يجلس ولا أن يسير . وسأله أحد الجالسين فى تظرف ومداعبة عن آخر الأخبار فقال :

ـ الشعب فى القاهرة يرقص فى كل مكان بعد أن استقبل بطل التأميم عائدا من الإسكندرية ، حماسة وغيرة لم أرها طول عمرى وأنا ابن خمس وستين سنة .

فصفق أحد الجالسين وكأنما أهتدى إلى شىء فجأة وهتف صائحا :

ـ ياخبر أبيض ، أنا فهمت معنى الحكاية اللى حكاها عم سليم ..

ياخبر أسود .. حكاية الطلمبة أخت حكاية القناة .

عال والله عال ..

وأخذنا نضحك . وبدأ الشيخ عبد الباقى فى التحرك سائرا وآذننا بدقة من عصاه على الأرض غيرالمتربة ، فسألته أنا :

ــ إلى أين ياسيدنا ؟

فأجاب بهوادة :

ــ إلى أحد العلماء لأسأله عن أحدث تفسير لقوله تعالى :

« كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » .

فرد أحد الفلاحين فى شبه ثقة :

ــ وهل هذه محتاجة إلى تفسير ؟

وأخذ عم سليم يضرب لنا الأمثال .ويحكى حكاية « القنبرة » التى جاءت من الجبل لتطرد « قنبرة » الحضر . وحكاية الرجل الذى خاف من الذئب فرمى نفسه فى النهرفغرق . وحكايات أخرى نسيتها لأننى كنت مشغولا بماحدث . أرجع إلى الماضى وأعود إلى الحاضر .. فى رحلة مستمرة بين الاثنين كحركة ذراع القاطرة .

وملت على الطالب الجامعى وهمست فى أذنه :

ــ هل ترى يابنى .. كل شىء ينمو حتى الأفكار. حتى العقائد .. إن نور المعرفة قد دخل إلى القرى لأن « الفولت » ضخم جدا . وعندما يدير الفلاح الزر فيشعل مصباح الكهربة يتم المراد .. يافتحى . لست أنت وحدك الذى نما . كل شىء ينمو يابنى .

وقال أحد الفلاحين فجأة كأنما تذكر شيئا :

ــ أما مصيبة . عاوز ياخد الدار علشان الطلمبة . لادى ولادى ملكه .. أما عجايب يارجالة !!

وأحسست بالجوع ، ربما لأنى كنت قد أحسست بالراحة . من كان يظن أن مثل هذا الحديث يدور جنب جدران من الطين . ليس هذا إلا لأن « الفولت » ضخم جدا . وعندما يدير الفلاح الزر ليشعل مصباح الكهربة يتم المراد يابنى .

وتقلقلت فى مكانى أريد أن أقوم . وبدا وجه القمرعلى الأفق الشرقى أحمرقانيا حين نهض فى هدوء . وفى هذه اللحظة سمعنا انفجارا ودويا بعيدا ناحية الشمال الغربى فزعق أحد الجالسين :

ـ هل بدأنا ؟

وضحك الباقون ..

ـ مستعدون .

وعند الصباح قال لى أحد الفلاحين حين رآنى خارجا من الدار:

ـ هل علمت مصدر الانفجار ؟ إنه خزان فى وابورالطحن فى القرية البعيدة .

وأشار بيديه مصغرا الأمر :

ـ خزان صغير .. صغير.

فأجبته وعيناى تفحصانه :

ـ حتى ولو كان الخزان صغيرا .. صغيرا جدا .. فإن انفجاره غير مأمون العواقب .

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

رقم الايداع ٣٠٢٣

الترقيم الدولى ٠ ــ ٣٠٦ ــ ٤١٦ ــ ٩٧٧



دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

الثمن ٢٢٥ قرشا